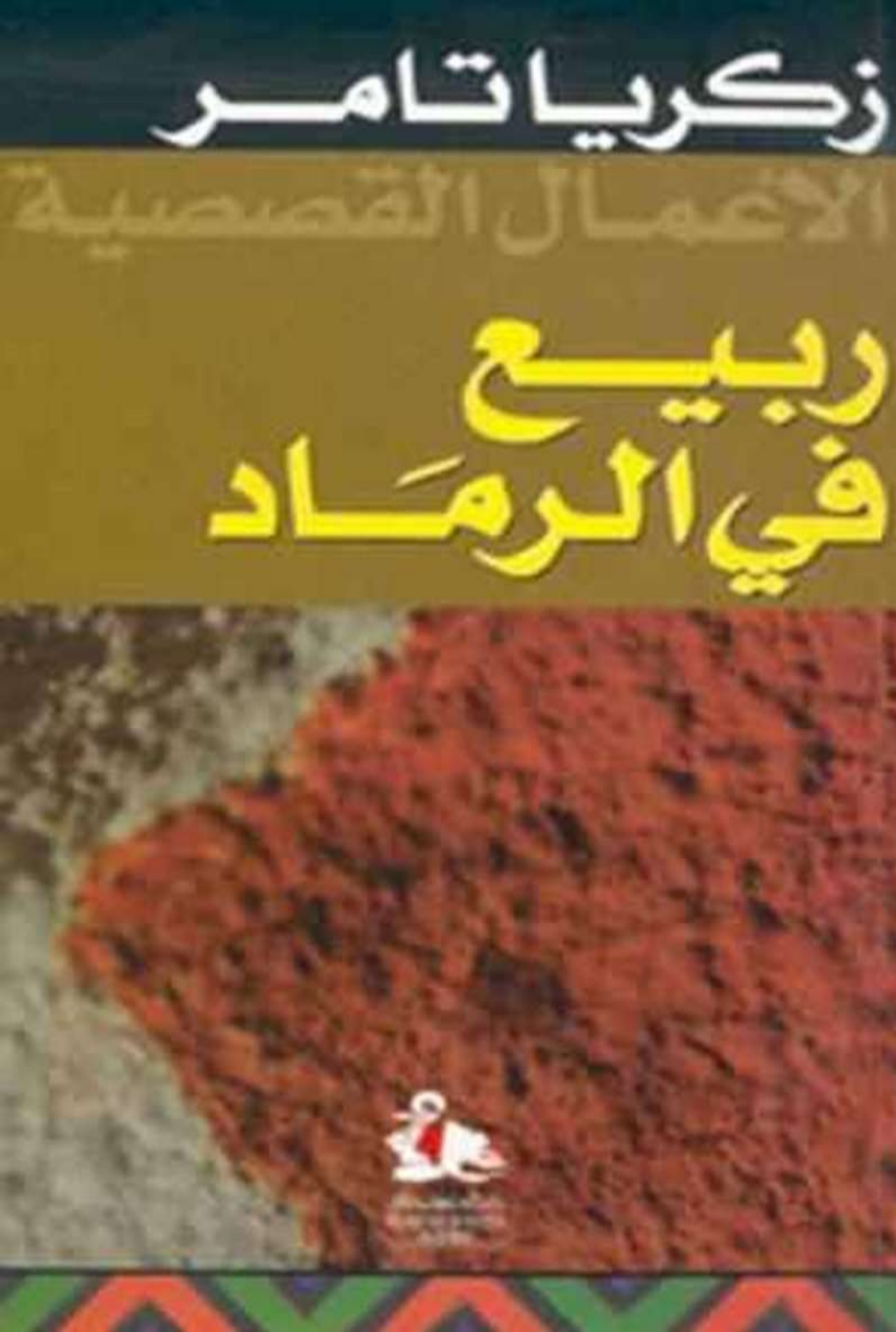

زكريا تامر
الأعمال القصصية
ربيع
في الرماد

THE COLLECTED SHORT STORIES

SPRING IN THE ASHES

BY

ZAKARIA TAMER

First Published in 1963
Second Edition Published in 1978
Third Edition Published in 1994

56 Knightsbridge
London SW1X 7NJ
UNITED KINGDOM

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 1-85513-410-1

تصميم الغلاف: رشا السلطي
لوحة الغلاف: محمود حمّاد

الطبعة الأولى ١٩٦٣
الطبعة الثانية ١٩٧٨
الطبعة الثالثة ١٩٩٤

قصص الكتاب


ثلج
آخر الليل

ألصق يوسف جبهته بزجاج النافذة المطلة على الطريق. وكان الليل خارج الغرفة وردة سوداء باردة، وكان ثمة ثلج يتساقط بطيئاً عبر فضاء من نور شاحب. وكانت أم يوسف تضع آنئذٍ ابريق الشاي على المدفأة، بينما جلس والده صامتاً، ترين الكآبة على وجهه المتغضن، ويلتمع في عينيه سخط خفي، ويداه مرتميتان بوجوم على ركبتيه كصديقين متعبين عجوزين.

وأحنق يوسف ان يعود القط ويتسمح بساقيه، فركله بقدمه متأففاً.

وانكمش القط متألماً، وقبع قرب المدفأة، وأغمض عينيه بانكسار، وأخذ يحلم بعثوره على حديقة أسوارها عالية جداً، وأرضها مغطاة بطبقة من عصافير لا أجنحة لها، سيختار عصفوراً سميناً، وسيحملق إليه بشراهة، فيذعر العصفور ويتراجع باضطراب. سيقول العصفور بصوت رفيع متقطع: «أنا عصفور مسكين».

ـ: «أنا جائع».

أعماقه غضب قديم، فقال موجهاً كلامه لأبيه: «ستؤذينا، يجب ان نتخلص منها».

فتألق سرور خفي في عيني الأب وهو يجيب: «إنها تؤذي فقط من يؤذيها.. وقد عاشت في البيت قبل ولادتي ولم تؤذ أحداً».

وكان يوسف موقناً بأن الأفعى تعلم بأنه يكرهها وهي تترقب مقدم لحظة ما ثم ستزحف حاملة إليه الهلاك، وكثيراً ما طالب أباه بالسكن في منزل جديد من اسمنت وحديد وحجر.

وتجسدت في مخيلة يوسف أبنية بيض كأنها قصائد من الشعر العذب المفعم بشمس لا تأفل.

وكان الأب يرفض قائلاً بعناد: «هنا ولدت وهنا سأموت».

وراقب يوسف وجه أبيه بغيظ. وسعل الأب ثم تابع قائلاً بسخرية: «اعثر عليها إذا استطعت واقتلها».

وقال يوسف لنفسه: «سأعثر عليها ولن تفلت مني».

وكان ثمة مقعد فارغ قريب من النافذة، تأمله يوسف ملياً وبحنق، وكانت أخته اعتادت الجلوس عليه في السهرات، تضحك وتتحدث وتداعب قطها.. ولكن أين هي الآن؟

وتاق يوسف إلى تدخين سيجارة. وكانت السجائر في جيبه، ولكنه لم يكن ليجرؤ على التدخين أمام أبيه، فاتجه نحو باب الغرفة. وبادره والده متسائلاً: «إلى أين؟».

-: «سأغني لك».

-: «أنا جائع».

وسينقض القط على العصفور في وثبة ضارية، ويغرس أسنانه الصغيرة الحادة في عنقه ممزقاً حنجرته الغضة، وعندئذٍ سينزف الدم قرمزياً ساخناً.

وضغط يوسف جبينه على زجاج النافذة الرطب بينما كان يتكون في مخيلته وجه أخته الهاربة: فتاة وديعة، دائبة الابتسام. وقال لنفسه: «سأقتلها حين أعثر عليها. سأفصل رأسها عن جسدها».

وسمع أباه يقول له: «ألم تتعب من الوقوف؟».

فلم يتحرك يوسف، وظل صامتاً. وأسرعت الأم إلى التدخل قائلة: «نسيت أن أخبركما بما رأيت البارحة.. رأيتها».

ففوجىء يوسف، واستدار بحركة سريعة. وحين التقت نظرته بوجهها، أدرك حالاً انها قد شاهدت مرة أخرى الأفعى التي تحيا مختبئة في بيتهم العتيق ذي الجدران الترابية. وتخيّل يوسف الأفعى: إنها سوداء، ناعمة، ملساء، تزحف بسكينة عبر باحة البيت تحت ضوء القمر الذي كان بازغاً بالأمس.

وقالت الأم: «ما أجملها! كانت كالملكة».

وشعر يوسف أن الأفعى ملكة حقيقية عجيبة، مات كل عبيدها وبقيت تحيا وحيدة في أرض خربة. واستيقظ في

فقال يوسف: «أنا متعب وأريد أن أنام».

قال الأب: «يا لك من مسكين! عملك كثير جداً.. هل تكسر حجارة في النهار؟ لماذا تتعب ما دمت لا تعمل شيئاً؟ هل أتعبك التثاؤب؟ قل لي.. ألم تجد عملاً؟».

واعترضت الأم قائلة: «انه مريض.. انظر إليه.. لكم هو هزيل وأصفر».

وأحس يوسف أن اللحظة التي يخشاها موشكة على المجيء.

وصرخ الأب بنزق: «أنا لا ألوم أحداً سواك. أنت التي أفسدت الأولاد. الابن الشاب يأكل وينام.. والبنت تهرب.. والزوجة تثرثر مع الجارات.. والأب يشتغل كالحمار».

فقالت الأم بصوت متوسل: «لا تصح هكذا، سيسمع الجيران صوتك».

ـ: «سأصيح كما يحلو لي».

وحنى الأب رأسه ثم أضاف بلهجة أسيانة: «آه يا ربي.. ما الذي فعلته حتى تفضحني في آخر عمري؟».

قالت الأم: «ألم أقل لك أن تبلغ الشرطة عن اختفائها؟».

ـ: «كان يجب ألا تتركيها وحدها، ولولا خروجك من البيت وذهابك إلى الجيران لما استطاعت الهرب. لماذا لم تأخذيها معك؟».

ـ: «كانت المسكينة متعبة بعد ان نظفت البيت كله».

ـ: «مسكينة؟ مسكينة تستحق الذبح. ماذا سنقول لأقاربنا إذا زارونا ولم يجدوها في البيت؟ هل سنقول لهم: كانت أمها عند الجيران فأخذت البنت أكثر ثيابها وهربت ولا نعرف مكانها».

والتفت الأب إلى يوسف، وردد بصرامة: «أريد منك أن تبحث عنها، وتجدها بأي طريقة. اذبحها كالكلبة».

وتذكّر يوسف أيام طفولته، وكانت الخراف تذبح في صباح أيام الأعياد على عتبات حوانيت الجزارين.. الخروف يطلق صيحات مذعورة تحت ثقل الجزار ولكنه لا يستطيع التملص.. وسكين الجزار كبيرة النصل وحادة.. تخترق عنق الخروف ويتدفق الدم من جرح عميق أحمر.

وانفجرت الأم تبكي، وهتفت: «إنها ابنتي أنا.. وأنتما الاثنان لم تهتما بها أو بي».

وفتح يوسف الباب، وتسلل إلى الخارج. وحين أغلق خلفه باب غرفته شعر بطمأنينة غريبة، وسارع يشعل سيجارة، ويعبّ دخانها على مهل، ويذرع الغرفة بخطى قصيرة مهتاجة وهو ينصت لوقع حذائه على البلاط، ثم توقف بعد قليل قرب طاولة خشبية، ورمقها بحسرة.. فهنا كان المذياع الصغير الذي كان يملكه، وقد أجبره أبوه على بيعه.

ولقد كان المذياع صديقاً وفياً ليوسف، وها هو ذا بعد فقده شاب بلا موسيقى. وأحس بالبرد يزداد حوله، فخلع ثيابه، وأطفأ المصباح الكهربائي ثم دس جسده تحت اللحاف مسلماً رأسه للوسادة.

وكان موقناً بأن الأفعى لا بد مختبئة في مكان ما في البيت أو تزحف عبر غرفه بهدوء.

وأطبق يوسف جفنيه، وكان حنينه إلى الموسيقى ينمو ويتفجر في داخله كغيمة تحولت مطراً هاطلاً فوق تراب خشن. وأصغى إلى موسيقى سحرية قادمة من أعماقه حيث يقبع شيء غامض مرتجف، يخلق الموسيقى وهو ينتحب ولا يمسح دموعه.

وشعر يوسف بأنه قد يبكي بعد قليل بشدة، وأنه هو المطر والتراب الجاف في آن واحد. وأحس يوسف بأن ثمة عالماً مجهولاً قريباً منه كل القرب ولا يفصله عنه سوى جسر من الزجاج. وقال لنفسه: «مريض أنا مريض».

واندفع يوسف، واجتاز مسرعاً الجسر الزجاجي، فاحتضنه برأفة عالم شاسع مبهم، سيده الظلام الكثيف.

وتجسدت في مخيلة يوسف بقايا مدن.. أبنية متهدمة، فهتف بلا صوت: عمري يتبدد.. أريد عمراً آخر بلا أب.

وتفجر أساه المكبوت: الأشجار نجوم خضر. قلبي يطرق باباً مغلقاً. دموعي أطفال حزن هرم. لمن يشحب وجه الشمس؟ الليل وسادة تحب المتعبين. دمي ينزف، يهرقه غياب امرأة نهدها نائم على بساط أزرق، يحلم بمدن الرجال.

يوسف يرتجف تحت اللحاف وقد تأكد أنه مريض.. إنه يصطاد نجوماً ويقول: ليت الجرح لا يصرخ، ويقول: أشرقي يا شمس الغضب.

ويأتي الموت متنكراً في ثياب بحار. يوسف يقول له: ليحملني مركبك إلى الشاطىء.

والشاطىء الآخر صوت أخضر ينادي يوسف بكثير من الحنان، ولا يجيب الموت، ويبحر مركبه، ويلوّح يوسف بيده لمسافرين شاحبي الوجوه.

وأقبل الناس الذين يحبون الموسيقى، وكانوا يحملون طبولهم وأبواقهم. وتجولوا في حدائق مهجورة.

الليل شعر امرأة. لا لا. الليل أفعى تزحف متغلغلة في صميم العالم.

ويئن واحد من الرجال الذين يحبون الموسيقى، ثم يرفع بوقه إلى فمه. وتألق معدنه النحاسي لحظة ثم انبعث منه صراخ طويل متحشرج تخلى عن الخجل وناح كأنه صوت البشر المسحوقين الذين يعيشون بذل فوق الأرض الصلبة.

يوسف الآن سيف وعباءة تلاعبها الريح وجواد يعدو فوق رمال الصحارى. يسمع صوت امرأة تستغيث. أختي تناديني.

وتمنى يوسف لو تأتي الأفعى في تلك اللحظة. لا يريد أن تميته بسمها إنما يبغي أن تطوق عنقه بجسدها البارد، وتظل تضغط عليه حتى يختنق ويكف عن الحركة.. وعندئذ سينأى عن أبيه وأمه وأخته والسكين العطشى للدم.

ولعق يوسف شفتيه اليابستين بلسانه، ولم يكن يريد الاستسلام للسبات لأنه كان يعلم أنه سيشاهد في أثناء نومه سبع بقرات عجاف ذات خوار حزين، ترعى في حقل

بلا عشب، وستكون السماء سقفاً صلداً واطئاً من الجراد والذباب.

لن يستسلم يوسف لليأس. سيظل يبحث عن أخته طوال أيام الشتاء متسكعاً تحت المطر والثلج غير آبه للريح والصقيع، ولكنه لن يتمكن من العثور عليها، وسيتأمل بأسى الأشجار الجرداء، وستكون كالمتسولات، ولن تترك أصابعه مقبض المدية القابعة في جيبه.

وتمثل يوسف أخته يوم طلبت من أبيه السماح لها بالذهاب إلى السينما مع بنات خالتها، فصفعها الأب بقسوة، ولن ينسى يوسف نظرة عينيها الذليلتين ونشيجها المكتوم.

وعندما سيأتي الربيع ويعود للسماء صفاؤها، وتسطع الشمس دافئة، وتكتسي الأشجار بأوراق خضر، ستقوده قدماه إلى سوق الخضروات، وهناك سيمشي على مهل منصتاً لأصوات الباعة. وبغتة سيبصر فتاة تحمل في يدها حقيبة من قماشٍ وستكون منهمكة في مساومة أحد الباعة. سيتراجع يوسف مضطرباً: إنها أختي.

وستتلمس أصابعه مقبض المدية، وسيراقب أخته: إنها امرأة صغيرة متعبة، بائسة وسعيدة في وقت واحد. وسيتذكر يوسف يوم كان مريضاً ومستلقياً على ظهره، يئن متوجعاً، وحين فتح عينيه شاهد أخته تبكي بصمت.

وستسير الأخت وهي تحمل حقيبتها المملوءة بالخضروات، وسيقترب منها أحد الحمالين عارضاً عليها حمل الحقيبة فترفض الأخت، وسيقول يوسف لنفسه:

سيدة المنزل الصغيرة تريد توفير النقود. وسيتبعها يوسف، وعندما تصبح في شارع خاو سيدنو منها حتى تلامس كتفه كتفها فتلتفت مستطلعة فتباغت برؤية أخيها، وتتسمر متجمدة في مكانها، وتفلت أصابعها حقيبة الخضروات، وستنظر إليه بعينين فيهما ذل وأسى وحنان، ثم ستمد إليه يدها، وسيشعر يوسف بأنها ليست أخته وإنما هي امرأة صديقه سافرت طويلاً، وها هي ذي الآن تعود مادة إليه يدها لتصافحه. وسيمد يوسف يده بحركة ذاهلة ثم سيظلان واقفين دون كلمة. وسيمر شاب ويرمقهما بنظرة خبيثة كأنها تهتف: ها هما شابان عاشقان. وسينحني يوسف، ويحمل حقيبة الخضروات ثم سيسألها بصوت خشن: «كيف تعيشين؟».

-: «تزوجت من شاب فقير».

وستهرب كل الكلمات من يوسف، ولكنه سيدرك ما حدث: شاب فقير، طيب القلب، وفتاة تريد أن تحيا، وأب لن يزوج ابنته من فقير.

وسيسيران معاً ثم ستقف الأخت عند مدخل بناية وتقول: «وصلنا».

وسيعرف يوسف أنها تسكن في القبو، وسيضع حقيبة الخضروات على الأرض ريثما تفتح أخته الباب ثم سيحمل مرة أخرى حقيبة الخضروات، ويدلف إلى الداخل، وستستقبله تواً رائحة مخلوقين ينامان في سرير واحد ويضحكان ويتخاصمان ولكنهما لا ينامان حزينين.

وسيرتمي يوسف على مقعد، وكم سيكون مريحاً.

وستتلمس أصابعه ثانية المدية: سينهض الآن وينتضي المدية ذات الشفرة الحادة، وسيقبض على شعر أخته ويطرحها أرضاً ويذبحها بينما هي تغمغم بصوت هلع خافت: «أخي أخي».

وسيتذكر يوسف أيام كان وأخته صغيرين. كان يكبر أخته بأعوام قليلة، وقد جاءت إليه ذات مرة باكية، وأخبرته أن ابن الجيران ضربها، وقد سارع وقتئذٍ إلى الحارة، وضرب ابن الجيران.

سيقول يوسف للمدية: «موتي. ظلي بعيدة عن الدم».

وستأتي الأخت، وتقف أمامه وقد خلعت معطفها. يا للثوب الرائع الذي ترتديه.. ثوب امرأة منزل! ستقول له: «كيف حال أمي؟».

وسيظل يوسف يرقبها بصمت، وستندفع فجأة إلى النحيب وهي تتمتم: «كل اللوم على أبي. لن أسامحه.. عذّبنا كثيراً».

لقد عذّبنا. لقد عذّبنا.

وسيبعد يوسف يده عن المدية، ويخرجها من جيبه، ويضعها تحت ذقن أخته، ويرفع وجهها إليه، وسيكون مبللاً بالدموع، فيجففه بمنديله وهو يقول بحنو ورقّة: «لا تبكي».

وربما وثبت على حين غرة، وقبلت وجنته، وعندئذٍ ستمتلىء شرايينه بأغنية عارمة للحبور، وقد يقول لها: «هيا هيا ابتسمي».

وعندما يعود إلى البيت سيجد الأفعى مرتمية في الباحة ميتة باردة، وسيتطلع بانتصار إلى أبيه المكتئب.

واجتاح يوسف حنو عجيب جارف وهو متمدد على الفراش، ووَدَّ لو ينهض ويضيء المصباح الكهربائي، ويحدق إلى المرآة.

وأقبل الرجال الذين يحبون الموسيقى، وكانوا لا يحملون طبولاً وأبواقاً غير أن أصواتهم الشادية كانت كسهل أخضر لا نهائي.

واستسلم يوسف للسبات العميق بينما كانت يتصاعد من باحة البيت مواء قط حزين كأنه نداء ضارع يناشد مخلوقاً ما بالعودة.

وكان الثلج خارج الغرفة لا يزال يتساقط مانحاً الأبنية والناس والشوراع قناعاً أبيض.

الباب القديم

غادر الحانة جندي ذو شعر أشقر مخلفاً وراءه ضجيج رجال سكارى، وجوههم سمر، وأعينهم وديعة غير أنها تبدلت لحظة لمحته، واتقدت فيها الكراهية والصرامة لأنه واحد من جنود غرباء غزوا مدينة لم يولدوا فيها.

وتلقفه صمت الشارع الذي كان آنئذٍ خاوياً، فعندما يشارف الليل على الانتصاف، تستسلم المدينة للسبات، فتطفأ أنوار النوافذ، وتقفر الطرقات، وتمسي ملكاً للمتسكعين والمقامرين والسكارى العائدين إلى منازلهم بخطى متعبة.

وسار الجندي الغريب بمحاذاة سور النهر مترنحاً قليلاً، وأنعشه بعض الشيء الهواء الخفيف الذي كان يهب محملاً برائحة الياسمين والليمون والآس. وكان خرير المياه المترقرقة بهدوء ينساب إلى سمعه كأنه شكوى حزينة خافتة.

وبلغ ساحة المدينة الرئيسية، وهناك وقف هنيهات حائراً

ثم سلك طريقاً فرعية، غرست في وجه أرضها الحجرية سكة الترام، وتناثرت على جانبيها دكاكين، أبوابها حديدية مقفلة، وأعمدة خشبية متباعدة تتدلى منها مصابيح كهربائية، بخيلة الضوء.

وتعمد الجندي السير بين قضيبي السكة الحديديين. إنه الآن ترام. وسرى إليه قليل من الفرح. إنه ترام يتهادى بطيء السير. وتذكر أيام كان صغير السن، يركب القطار ويقف قرب إحدى نوافذه يرقب الحقول الخضر والقرى المتعاقبة بسرعة تحت نظراته بينما الهواء يبعثر خصلات شعره الأصفر الناعم على جبينه.

إنه الآن ترام سريع، ثمل. وأخذ الجندي يركض برتابة بين قضيبي السكة مترنحاً وقد تزايد مرحه، وقلد الترام مطلقاً من فمه صوتاً حاد النبرة: «تم تم تم».

وتابع عدوه حتى تعب، وعندئذٍ توقف لاهثاً، مجيلاً أنظاره فيما حوله. وكان إلى يمينه درب مظلم، يلوح في آخره مصباح كهربائي وحيد.

وكانت التعليمات تحذر الجنود الغرباء من السير فرادى ليلاً في أزقة المدينة.

وأحس الجندي أن هناك في الدرب خطراً غامضاً يربض منتظراً مقدمه. وحفزه شوق مبهم إلى أن يجابه الخطر ويتحداه، فسار في الدرب الخاوي مغنياً بصوت أجش متقطع حتى وصل إلى نهاية الدرب حيث المصباح الكهربائي. وكان هناك باب كبير من أبواب المدينة، باب

قديم كان يغلق فيما مضى من الليالي ليحمي المدينة من أعدائها.

واستند الجندي إلى الباب، وخيّل إليه أن يسمع صليل سيوف وصهيل جياد وأصواتاً تتعالى مرددة: «الله أكبر».

وانتابه بغتة خوف غريب، وسمع وقع أقدام، فارتعش متوجساً، واشتد التصاق ظهره بالباب. وبدا رجل وامرأة يسيران معاً ويتحدثان بألفة. وكانت المرأة ترتدي ملاءة سوداء. واستطاع الجندي أن يلمح وجهها قبل ان تسدل عليه نقابها القاتم بحركة سريعة من يدها، وكان وجهاً أبيض فتياً تألق عبر العتمة بكثير من العذوبة والفتنة.

وتضاعفت وحشة الجندي الغريب، وتفاقم سخطه على شيء ما، ووجد نفسه يتحرك دون وعي، ويعترض طريق الرجل والمرأة، تسيطر عليه رغبة جارفة في رؤية وجه المرأة عن قرب وبلا نقاب.

وأطلقت المرأة صيحة ذعر خافتة، ووقفت خلف الرجل محتمية به، متمسكة بخاصرتيه.

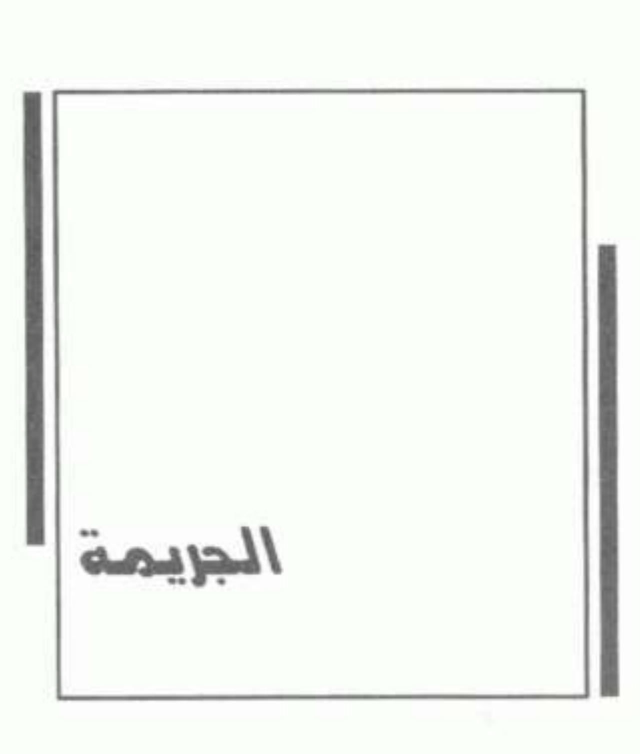
وتقدم الجندي ماداً يديه إلى الأمام كأعمى، وتمايل مترنحاً محاولاً الإمساك بالمرأة، ولكن الرجل صدّه بيديه، ودفعه في صدره دفعة قوية، أجبرته على التقهقر إلى الخلف بينما ولولت المرأة بصوت حاد، فتسمر الجندي في مكانه حائراً، مرتبكاً، شديد الحنق، وتناهى إلى مسمعه وقع أقدام سريعة، وما لبث أن أقبل ثلاثة رجال، يرتدون الشراويل السود ويضعون على رؤوسهم الطرابيش الحمر، وتحلقوا فوراً

حول المرأة ورجلها. وقال أحدهم للمرأة: «لا تخافي يا أختي لا تخافي».

ووقف الرجال الأربعة قبالة الجندي متحفزين، وساد صمت غريب. وسمع بوضوح هدير النهر الذي كان يتابع رحلته من أول المدينة حتى آخرها.

وشعر الجندي أن ثمة خطراً مميتاً يهدده، فمد يده إلى وسطه، وحاول إخراج مسدسه من مغلفه الجلدي، فانقض عليه الرجال الأربعة، وتخاطفته أيديهم، وطرحته أرضاً، وفتح الجندي فمه، وأراد الاستغاثة غير ان خنجراً صلب النصل ضرب عنقه في تلك اللحظة، فاضمحل الصراخ ولم يفلت منه سوى شهقة ضئيلة ممتزجة بحروف كلمة ما.

وانحنى الرجال الأربعة، وحملوا جثة الجندي، وألقوه في النهر القريب المظلم، فصعد صوت سقوطها في الماء كاستغاثة لن يسمعها أحد، ثم هيمن السكون لحظات، وما لبث أن هزمه وقع أقدام تركض مبتعدة عن دماء لطخت رقعة أرض قريبة من باب عتيق كبير. وكان الباب فيما مضى قسماً من سور حجري شاهق يطوق منازل المدينة، ويحميها من الأعداء. ولقد فتح الباب مرات عديدة، وتدفق منه الرجال والخيول والسيوف الفولاذية غير ان السور تهدم الآن، ولم يبق منه سوى أطلال مبعثرة، وظل الباب مفتوحاً.



الجريمة

كان سليمان الحلبي يمشي بخطى متئدة مبتهجاً بالهواء الذي يهب فيما حوله مسقطاً الأوراق الصفر من الأشجار المنتصبة على جانبي الشارع، وكانت يداه قابعتين في جيبي بنطاله كطفلين نائمين.

وحين توقف لحظة عن السير ريثما يشعل سيجارة، دنا منه رجلان، وجهاهما متجهمان، وطلبا منه هويته بلهجة صارمة. وارتبك إذ عرف مهنتهما. وقد كانا طويلي القامة، قسمات وجهيهما متشابهة. وأعاد الرجلان إلى سليمان أوراق هويته ثم طلبا إليه مرافقتهما، فأطاعهما دون تفكير، وسار وهو يقول لنفسه: «لا بد من أن ثمة سوء تفاهم».

واقتاده الرجلان إلى مخفر غير بعيد، وأدخلاه إلى غرفة لها ثلاث نوافذ مفتوحة للشمس والهواء والسماء. وكان يجلس في صدر الغرفة رجل ذو شارب أسود، أمامه مكتب حديدي، تكومت على سطحه أكداس من الورق الأبيض.

وقال سليمان لنفسه: هذا رجل أسود.

وقال الرجل الأسود متسائلا: «هل أنت سليمان الحلبي؟».

فأحنى سليمان رأسه بالإيجاب دون أن يتفوه بكلمة، وتناول الرجل الأسود ورقة بيضاء موضوعة على المكتب، وطفق يقرأ برتابة وكسل: «في ليلة السادس من حزيران شاهد سليمان الحلبي حلماً قتل فيه الجنرال كليبر».

وتوقف الرجل الأسود عن القراءة، وتطلع إلى سليمان الحلبي بعينين صارمتين بينما تحول الرجلان إلى تمثالين من حجر، متسمرين قرب إحدى النوافذ، وكانت المدينة خلف النافذة. وتساءل الرجل الأسود مخاطباً سليمان: «هل هذا صحيح؟».

فغمغم سليمان الحلبي مستنكراً: «لا لا. أنا لا أعرف الجنرال كليبر».

فالتفت الرجل الأسود نحو الرجلين، وقال لهما: «أحضرا الشهود».

ولم يتحركا غير أن باب الغرفة فُتِحَ بعد لحظات، ودلف إلى الداخل ثلاثة أشخاص، ثيابهم معفرة بالتراب، ووجوههم صفر كأن أصحابها عاشوا مئات السنين في قبور تمقت الشمس. وعرفهم سليمان على الفور، وكانوا رجلاً هرماً وامرأة كهلة وفتاة في مقتبل العمر.

وقال الرجل الأسود: «ليتقدم الشاهد الأول».

وابتعد الهرم منفصلاً عن المرأة الكهلة والفتاة، واقترب من مكتب الرجل الأسود، ووقف أمامه محني الظهر، وقال

بصوت كأنه منبعث من اسطوانة عتيقة تدور بتثاقل تحت ذراع الحاكي: «في ليلة السادس من حزيران شاهدت سليمان الحلبي يقتل الجنرال كليبر».

فقاطعه سليمان هاتفاً: «أبي».

فلم يأبه الهرم له، وتابع كلامه قائلاً: «أبصرته يطلق من مسدس ضخم سبع رصاصات اخترقت جسد الجنرال وانبثق الدم من سبعة ثقوب».

وكان الحزن في تلك اللحظة فارساً يمتطي صهوة جواد غير مروض، وقد وطأت سنابكه لحم سليمان بينما غرس الفارس سيفه في القلب تماماً، ولكن سليمان لم يمت إنما سمع الرجل الأسود يقول: «الشاهد الثاني».

وتقدمت المرأة الكهلة، ووقفت بجانب الرجل الهرم، وقالت: «رأيته يقتل الجنرال، وكان يحمل فأساً رفعها إلى أعلى، وأهوى بها بكل قوته، فشطر الرأس إلى قطعتين، وسقطت الجثة قربي، واستطعت رؤية النخاع ممزقاً خارج الجمجمة المهشمة».

وأشارت نحو سليمان الحلبي باصبع لا ترتجف، وقالت: «هذا هو القاتل».

فتمتم سليمان الحلبي بحسرة: «أمي أمي».

فرمقته الكهلة بقسوة، وقالت له: «أمك امرأة واحدة فقط».

وتذكر سليمان يوم كان صغير السن، يلعب في الزقاق ملطخاً ثيابه بالطين، فوقفت أمه على عتبة باب البيت،

وكشفت عن صدرها الشديد البياض، وقالت له منادية بحنو: «تعال تعال».

وقال الرجل الأسود: «الشاهد الثالث».

وتطلع سليمان الحلبي إلى الفتاة بنظرات أسيانة. ولم تتحرك الفتاة، فدمدم الرجل الأسود بغضب: «الشاهد الثالث.. ليتقدم».

وظلت الفتاة متجمدة في مكانها غير أنها بدأت الكلام قائلة: «رأيته راكباً سيارة، دعست الجنرال، ومرت فوقه عدة مرات حتى تحول لحماً لا شكل له».

وصاح سليمان الحلبي: «ماذا حدث يا أختي؟ ألم أتركك في البيت وقد طلبت إليّ أن أشتري لك مشطاً؟».

وأخرج يده من جيبه حاملة مشطاً أسود اللون. وقال الرجل الأسود: «لينصرف الشهود».

وأشار بيده بحركة ضجرة إلى الشهود الثلاثة، فتجمعوا في الحال متلاصقين في كتلة واحدة، واتجهوا نحو الباب، وما لبثوا أن غادروا الغرفة.

وضع الرجل الأسود سيجارة بين شفتيه، وحين رفع يده نحو السيجارة حاملة عود الثقاب المشتعل، لاحظ سليمان أن يد الرجل الأسود غريبة، فجلدها كثير التجاعيد، فكأنه جلد سرطان ميت، ظل زمناً مديداً تحت شمس قاسية.

ونفث الرجل الأسود دخان سيجارته، وتابعه بنظراته بينما كان يتلوى صاعداً في جو الغرفة ثم يتلاشى بتكاسل،

وقال لسليمان: «هل سمعت ما قيل؟ الأدلة على جريمتك ثابتة».

-: «لم أعترف بشيء».

-: «اعترافك ليس مهماً. لقد اعترف غيرك بذنبك».

-: «أنا بريء».

فتجهم وجه الرجل الأسود، وقال بصوت بارد قاس: «لماذا ولدت ما دمت بريئاً؟ جئت إلى هذا العالم كي تهلك، وستهلك دون احتجاج. أنت مجرم، وكنا نراقبك منذ أمد طويل، فالناس المشبوهون نعرفهم بسرعة ولا يستطيعون خداعنا».

وتناول الرجل الأسود أوراقاً بيضاً من على سطح المكتب، وأخذ يقرأ ما كتب فيها: «في الثالث من نيسان في الساعة الحادية عشرة وثلاث دقائق تطلع سليمان الحلبي إلى القمر، وقال لنفسه: القمر سعيد لأنه لا يعيش في مدينة حاكمها الجنرال كليبر».

وتألق القمر في مخيلة سليمان الحلبي، وكان قمراً تهرول نحوه سحب قرمزية.

-: «في يوم الحادي عشر من مايس في الساعة الثامنة صباحاً فتح سليمان الحلبي أبواب أقفاصه وأطلق سراح عصافيره».

وتذكر سليمان رغبة في البكاء اجتاحته بينما كانت العصافير في بدء انطلاقها عبر الفضاء الأزرق ترفرف بأجنحتها بارتباك واضطراب.

-: «وفي الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الثاني من حزيران خطر في ذهن سليمان الحلبي أن العالم سيكون سعيداً لو هلك بعض الأشخاص».

ورمى الرجل الأسود الأوراق على المكتب بحركة ساخطة، وقال: «ألم أقل لك إن أمثالك لا يستطيعون خداعنا؟».

وظل سليمان صامتاً وقد استغرب أن ينمو في أعماقه شعور حقيقي بالذنب، ولكنه كان في الوقت نفسه شديد الاقتناع ببراءته.

وابتسم الرجل الأسود، ولعق بلسانه شفته، السفلى وقال: «ستعدم في الساعة السادسة».

فألقى سليمان نظرة سريعة على ساعته، فألفاها توشك ان تصبح السادسة، فانتابه الهلع، ورفض تصديق ما حدث حوله، واعتبره مجرد حلم سيصحو منه بعد لحظات على هزة من يد أمه وسيسمع صوتها.

وقال الرجل الأسود بتشفٍ: «ستعدم».

-: «ألن أحاكم؟».

فضحك الرجل الأسود، وقال: «انتهت المحاكمة. أنا القاضي».

وتناهى إلى سمع سليمان صفير قطار، لا بد من أن القطار يهدر الآن ماراً تحت الجسر، قاذفاً دخانه في سحابة صغيرة لن تعيش طويلاً وستضمحل اثر ابتعاد القطار.

-: «هل سأموت شنقاً؟».

-: «لا».

-: «هل سيطلق النار عليّ؟».

-: «لا».

-: «هل سأحرق؟».

-: «لا».

-: «هل سأدفن حياً في التراب؟».

-: «لا».

وأشار إلى الرجلين قائلاً: «هيا.. نفذا الحكم بالاعدام».

الساعة الآن هي السادسة تماماً، والمدينة مستسلمة بفتور لضياء الشمس الآفلة، وكانت كامرأة ترغب في النوم قليلاً بعد أن أنهكها العمل من أجل أولادها.

وعُري سليمان الحلبي من ملابسه كلها، ولم يخجل من وقوفه عارياً عرياً كاملاً أمام أعين الرجال الثلاثة. وكانت السيارات تعبر الشوارع وهي تزعق بأبواقها عند المنعطفات. وأخرج الرجلان من خزانة خشبية مدية كبيرة، ثم ألقيا سليمان على الأرض، ولم يحاول المقاومة.

وكان بجانب الرجل الأسود، منضدة قصيرة القوائم، ملتصقة بالجدار، يقبع فوقها مذياع صغير، مدّ إليه الرجل الأسود يده. وبعد قليل انسابت منه أغنية لامرأة، صوتها مفعم بالعذوبة والشجن، ويتلاقى فيه الريح والمطر والحنان العارم.

وأنصت الرجلان قليلاً للأغنية ثم تحولا جلادين، وبترا

أصابع اليد اليمنى بالمدية، فصرخ سليمان متألماً، وتدفق الدم. خمس أصابع كانت ملكاً لسليمان الحلبي، وقد صافحت الأصدقاء، ولمست باشتهاء لحم النساء، وكان باستطاعتها في لحظة غضب خنق مخلوق ما.

وقال الرجل الجلاد لزميله: «يا لها من أغنية! ماذا تغديت؟»

فأ‍ـ لرجل الآخر: «حساء وقليلاً من الخبز. أسناني تؤلمني».

-: «مسكين».

وأشعل الرجل الأسود سيجارة أخرى، وتركها معلقة بين شفتيه لتحترق على مهل.

وقطع ساعد سليمان، فتأوه وأطلق صرخة حيوان، صرخة طويلة مبحوحة. ولقد كان سليمان يحلم بأن تنام الفتاة التي سيحبها على ساعده لا على وسادة محشوة بالصوف أو القطن.

وقال أحد الرجلين بينما كانت أصابعه تلتف حول مقبض المدية كأنها تتوق إلى أن تصير قطعة منها: «ليلة أمس شاهدت فيلما وكان سخيفاً».

-: «كل الأفلام سخيفة في هذا الأسبوع».

وكانت أغنية المذياع تصعد وتبوح بالعذاب المرّ الذي يبقى إثر اندثار الحب.

واضمحل مرفق سليمان. وكان مرفقاً يتكىء على حواجز الأنهر ومناضد المقاهي، ويلكز الأصدقاء.

وجثا أحد الرجلين على ركبتيه، وبتر الذراع اليمنى كلها بحركة سريعة بينما كان الرجل الثاني يمسك بسليمان لمنعه من الحركة. ولم يحاول سليمان الحلبي المقاومة إنما كان ينتفض كلما مست المدية لحمه، ويتلوى على الأرض الناعمة الملساء بينما الدم يتابع تساقطه ذا الايقاع الكئيب.

وفتحت دور السينما أبوابها، وغادرها روادها بخطى متثاقلة. وبترت ذراع سليمان اليسرى. ولو كان سليمان الآن متسولاً يمشي في الشوارع لاستدر الشفقة ولانهمرت النقود عليه، فهو بلا ذراعين، ولن يستطيع معانقة امرأة، وإذا جاع فمن سيضع اللقمة في فمه؟

وكان الرجل الأسود يتسم منتشياً بالأغنية المنبعثة من المذياع. وتابع الرجلان عملهما، وابتدأ جسد سليمان الحلبي ينقرض متضائلاً رويداً رويداً، وكانت الأعضاء المقطوعة تلقى جانباً. وكان الناس في الشوارع يسيرون على الأرصفة، وبعضهم يقف قليلاً أمام واجهات المكتبات ـطلعاً إلى عناوين الكتب والجرائد. وكانت أصوات بائعي ـن اليانصيب تتصاعد مطاردة المارة بإلحاح: «ستربح مئة ـ ليرة». وكانت الباصات تواظب على المسير متوقفة بين ـبن والحين في أمكنة معينة.

وقال الرجل الأسود مخاطباً الرجلين: «لننته بسرعة. ـيّ موعد».

وتخيّل الرجل الأسود بيته. لا بد من أن ضيوفه ـظرون مقدمه، ولا بد من أن زوجته ترحب بهم، وتقدم

لهم فناجين القهوة. وكانت زوجته جميلة، ويشعر الآن بأنه يحبها بضراوة.

وكان الرجلان في تلك اللحظة متغضني الجبين، ويداهما ملوثتين بالدم.

وقال الرجل الممسك بالمدية لزميله: «إلى أين تنوي الذهاب بعد العمل؟».

-: «إلى المقهى».

-: «أنا سأذهب إلى البيت، سأقرأ قليلاً من الشعر ثم أنام».

ووضع حد المدية على عنق سليمان الحلبي، وأغمض سليمان عينيه بينما كان يحس بنصل المدية يلامس حنجرته موشكاً على ذبحها، وشاهد نجوماً تبزغ كأنها عصافير ميتة.

وجمع الرجل الجلاد قوته، وضغط على المدية، فاخترقت اللحم والعظم اللدن، وفصلت الرأس الذي تدحرج مبتعداً عن قطعة اللحم الباقية، وكانت قلباً وكتفين. وظلت عينا سليمان الحلبي مفتوحتين، تطل منهما نظرة بلهاء.

ونهض الرجل الأسود، ووضع في جيبه علبة السجائر ثم سار متجهاً نحو باب الغرفة، وعندما أمسك مقبض الباب التفت نحو الرجلين، وقال لهما: «نظفا الغرفة قبل ذهابكما».

وعندئذٍ تذمر الرجلان بأصوات مرتفعة.

شمس صغيرة

كان أبو فهد عائداً إلى البيت، يمشي بخطى متباطئة، مترنحاً قليلاً عبر أزقة ضيقة متعرجة، تضيئها مصابيح صفر متناثرة متباعدة.

وضايق أبا فهد الصمت المهيمن فيما حوله، فبدأ يغني بصوت خفيض مترنماً:

مسكين وحالي عدم

وكان الليل أوشك أن ينتصف. وازداد أبو فهد غبطة، وكان قد شرب ثلاثة أقداح من العرق، وردد ثانية منتشياً:

مسكين وحالي عدم

وخيّل إليه أن صوته الخشن مفعم بعذوبة فائقة، فقال لنفسه بصوت مرتفع: «أنا مطرب».

وتخيّل ناساً ذوي أفواه مفتوحة، يلوحون بأيديهم ويهتفون ويصفقون، فضحك طويلاً، ثم أمال طربوشه الأحمر إلى الخلف قليلاً، وعاد يغني ببهجة:

مسكين وحالي عدم

وكان يرتدي شروالاً رمادي اللون، ويحيط خصره بحزام أصفر عتيق. وعندما وصل إلى تحت القنطرة حيث الظلمة أقوى من النور، بوغت برؤية خروف صغير أسود، يقف لصق الحائط، ففتح فمه مدهوشاً، وقال لنفسه: أنا لست سكراناً. أنظر جيداً يا رجل. ماذا ترى؟ هذا خروف. أين صاحبه؟

وتطلع حوله، فلم يجد أحداً، وكان الزقاق مقفراً تماماً. ثم حدّق إلى الخروف، وقال لنفسه: هل أنا سكران؟

وضحك ضحكة خافتة، ثم قال لنفسه: الله كريم، لقد علم أن أبا فهد وأم فهد لم يأكلا لحماً منذ اسبوع.

واقترب أبو فهد من الخروف، وحاول اجباره على المسير بدفعه إلى الأمام، غير أنه رفض التحرك، فأمسك أبو فهد بقرنيه الصغيرين، وجره منهما، ولكن الخروف ظل متجمداً لصق الحائط. فرمقه أبو فهد بغيظ ثم قال له: «سأحملك وأحمل أيضاً والدك وأمك».

وحمل أبو فهد الخروف، ورفعه ووضعه على ظهره ممسكاً قائمتيه الأماميتين بيده، ثم تابع مسيره معاوداً الغناء، وقد تضاعف فرحه ونشوته. ولكنه بعد قليل كفّ عن الغناء إذ أحس أن الخروف يزداد ثقلاً وطولاً. وسمع على حين غرة صوتاً يقول: «اتركني».

فقطب أبو فهد جبينه، وقال لنفسه: لعن الله السكر.

وبعد لحظات، سمع الصوت نفسه يقول: «اتركني.. أنا لست خروفاً».

فارتعد أبو فهد، ودفعه رعبه إلى التشبث بالخروف. وتوقف عن السير. وقال الصوت مرة أخرى: «أنا ابن ملك الجان. اتركني وسأعطيك ما تريد».

فلم يجب أبو فهد، إنما استأنف السير بخطى متعجلة، فقال الصوت: «سأعطيك سبع جرار ملأى بالذهب».

وخيّل إلى أبي فهد أنه يسمع رنين قطع ذهبية تتساقط من مكان ما قريب، ويرتطم بالأرض.

فأفلت الخروف، واستدار وهو يوشك أن يهتف: «هات».

ووجد نفسه وحيداً في الزقاق الضيق الطويل. ولم يعثر على الخروف، وبقي متسمراً في مكانه هنيهات مرعوباً ثم تابع المسير مهرولاً. وحين وصل إلى البيت أيقظ زوجته أم فهد من نومها، وأخبرها بما حدث، فقالت: «نم.. أنت سكران».

-: «لم أشرب سوى ثلاثة أقداح».

-: «أنت تدوخ من قدح واحد».

فشعر أبو فهد أنه قد أهين، فأجاب بتحد: «أنا لا أدوخ إذا شربت برميلاً من العرق».

فلم تفه أم فهد بكلمة، وراحت تتذكر الحكايات التي سمعتها وهي طفلة عن الجان ولهوهم.

وخلع أبو فهد ثيابه، وأطفأ المصباح الكهربائي ثم تمدد على الفراش بجانب زوجته، وسحب اللحاف حتى ذقنه.

وقالت أم فهد فجأة: «كان عليك ألاّ تتركه قبل ان يعطيك الذهب سلفاً».

فلم يجب أبو فهد، وأردفت أم فهد قائلة بحماسة: «اذهب غداً، وأمسكه ولا تتركه».

فتثاءب أبو فهد متعباً حزيناً، وقال بإعياء: «وكيف سأجده؟».

ـ: «ستجده حتماً تحت القنطرة. أحضره إلى البيت ولن نتركه إلاّ بعد أن يعطينا الذهب».

ـ: «لن أجده».

ـ: «الجان يعيشون في النهار تحت الأرض. وعندما يأتي الليل يصعدون إلى سطح الأرض ويلهون حتى يقبل الفجر. وإذا أحبوا مكاناً معيناً ترددوا إليه باستمرار. ستجد الخروف تحت القنطرة».

ومد أبو فهد يده إلى صدرها ودسها بين ثدييها، وتركها هناك دون حركة، وقال: «سنصبح أغنياء».

ـ: «سنشتري بيتاً».

ـ: «بيتاً له جنينة».

ـ: «وسنشتري راديو».

ـ: «راديو كبير».

ـ: «وغسالة».

ـ: «غسالة».

ـ: «لن نأكل برغلاً».

-: «سنأكل خبزاً أبيض».

فضحكت أم فهد كطفلة بينما كان أبو فهد يتابع قائلاً: «سأشتري لك ثوباً أحمر».

وهمست أم فهد بلهجة عاتبة: «ثوباً واحداً فقط؟».

-: «سأشتري لك مئة ثوب».

وصمت أبو فهد لحظات ثم قال متسائلاً: «متى ستلدين؟».

-: «بعد ثلاثة أشهر».

-: «سيكون صبياً».

-: «لن يتعذب مثلنا».

-: «لن يجوع».

-: «ستكون ملابسه نظيفة وجميلة».

-: «لن يبحث عن عمل».

-: «سيتعلم في المدارس».

-: «لن يطالبه صاحب البيت بالإيجار».

-: «سيكون طبيباً حين يكبر».

-: «أريد أن يكون محامياً».

-: «سنسأله: أتريد ان تصير محامياً أو طبيباً؟».

والتصقت به بحنو، وأردفت متسائلة بلهجة ماكرة: «ألن تتزوج مرة ثانية؟».

فعض أذنها عضة خفيفة، وقال: «لماذا أتزوج؟ أنت أحسن نساء الأرض».

ولاذا بالصمت، يغمرهما فرح كبير هادىء، ولكن أبا فهد أقدم بعد قليل على إبعاد اللحاف عن جسمه بحركة مباغتة، فسألته أم فهد: «ما بك؟».

ـ: «سأذهب الآن».

ـ: «إلى أين؟».

ـ: «سأجيء بالخروف».

ـ: «انتظر حتى ليلة الغد، نم الآن».

وترك الفراش بعجلة، وأضاء المصباح الكهربائي المتدلي من السقف، وطفق يرتدي ملابسه.

ـ: «قد لا تجده».

ـ: «سأجده».

فقالت أم فهد وهي تساعده على لفّ خصره بالحزام الأصفر: «إياك وأن تتركه».

وأحس أبو فهد أنه مقدم على اقتحام مخاطرة ما، وهو سيكون بحاجة إلى خنجره. وكان خنجراً محدودب النصل ذا لمعة كامدة.

وغادر البيت، وانطلق مسرعاً حتى وصل إلى تحت القنطرة. وغمرته الخيبة إذ لم يعثر على الخروف. وكان الزقاق خاوياً، ونوافذ البيوت المتناثرة على الجانبين مطفأة الأنوار.

وقف أبو فهد منتظراً دون حركة، مسنداً ظهره إلى الحائط. وتناهى إلى سمعه بعد قليل ضجة تقترب، وما لبث أن بدا رجل سكران يترنح مرتطماً بجداري الزقاق بينما كان يهتف بصوت ممطوط: «هيه.. أنا رجل».

وحين اقترب من أبي فهد توقف عن السير، وفتح عينيه محملقاً بتعجب ودهشة، وقال بصوت متعثر فرح: «ماذا تفعل هنا؟».

-: «امش».

فقطب السكران جبينه مفكراً ثم تهلل وجهه فرحاً وقال: «أنا والله أحب النساء أيضاً. هل تنتظر أن ينام الزوج وتفتح لك المرأة الباب؟».

وتضايق أبو فهد، وأحس بالاستياء ينمو في داخله بينما تابع السكران كلامه قائلا: «هل المرأة جميلة؟».

فقال أبو فهد بحنق: «أي امرأة؟».

-: «المرأة التي تنتظرها».

-: «امش».

-: «سأكون شريكك».

واشتد غضب أبي فهد، فقد كان يخشى ألا يظهر الخروف لأن السكران موجود، فقال بشراسة: «امش في طريقك وإلاّ كسرت رأسك».

فتجشأ السكران، وقال بلهجة دهشة: «أنت تأمرني؟! أنت من أنت؟».

وصمت لحظة ثم أردف قائلاً: «تعال واكسر رأسي، هيا».

فقال أبو فهد: «اذهب واتركني. لا أريد أن أكسر رأسك».

فقال السكران بسخط: «لا لا. تعال واكسر رأسي».

وتراجع قليلاً إلى الخلف، وقال بصوت مرح: «سأجعلك غربالاً».

ودس السكران يده في جيب شرواله، وأخرج منه موسى طويلة النصل، فسارع أبو فهد، ومد يده إلى حزامه منتضياً خنجره بينما كان السكران يدنو منه بحذر وسرعة.

ورفع أبو فهد خنجره إلى أعلى، وأهوى به، فتحرك السكران إلى اليسار حركة خاطفة مفاجئة، فلم يمسه الخنجر، ودفع الموسى في صدر أبي فهد هاتفاً: «خذ».

وسحب الموسى من اللحم متراجعاً إلى الوراء بعض الشيء. والتصق أبو فهد بالحائط الترابي، ورفع الخنجر ثانية غير أن موسى السكران طعنته مرة أخرى في الصدر، وطعنته مرة ثالثة في الكتف اليمنى، فتهدلت على الفور الذراع، وأفلتت الأصابع الخنجر، فسقط أرضاً.

وصاح السكران وهو يتواثب حوله: «خذ.. خذ».

وطعنه في خاصرته، فشهق أبو فهد، وأحس بالضعف يداهم ركبتيه، فحاول أن يظل واقفاً بثبات غير أن الموسى كانت تطارد لحمه، وتصطدم به وتمزقه دون هوادة.

وصاح السكران: «خذ».

وطعنه في بطنه، فاندلقت الأمعاء إلى الخارج. وضغط أبو فهد عليها بيديه، وكانت حارة مرتعشة مبتلة، وانزلق منهاراً إلى أسفل، وارتمى على ظهره بينما كان السكران ينحني وهو واقف على مقربة منه، ويسعل عدة مرات ويتقيأ ثم يركض مبتعداً.

وسمع أبو فهد الخروف يقول له: «سبع جرار من الذهب».

وتساقط ذهب كثير، وتوهج شمساً صغيرة، ثم ابتدأ صوته ينأى رويداً رويداً.

الوجه الأول

وقف مأمون أمام مرآة خزانة الثياب على رؤوس أصابع قدميه محاولاً أن يبدو طويل القامة، غير أنه ظل طفلاً لا يتجاوز عمره السادسة ذا وجه أبيض وسيم، تتهدل على جبهته خصلة شعر سوداء. فاشتد غيظه، ومدّ لسانه بهزء. وأبصرته أمه في تلك اللحظة فتوقفت عن التحدث مع جارة بدينة، وهتفت باستياء: «مأمون، ماذا تفعل؟».

.: «أتفرج على لساني».

.: «ستتوسخ المرآة. ابتعد عنها».

فأطاع مأمون أمه، واقترب من الشباك المفتوح المطل على باحة البيت، وتطلع إلى السماء الزرقاء التي كان يعبرها آنذاك غراب يرفرف بجناحيه السوداوين، فصاح مأمون على الفور بصوت رفيع حاد: «قاق قاق قاق».

وخيّل إليه ان الغراب لا بد قد سمعه، وسينحدر نحوه. وعندئذٍ سيطلب مأمون إليه أن يصطاد عصفوراً جميلاً ويحضره إليه حيّاً. وبادرت الأم إلى زجره قائلة بلهجة

صارمة: «اسكت، كف عن الزعيق.. هيا.. اخرج من الغرفة».

فاحتج مأمون قائلاً: «ماذا فعلت؟».

فقالت الأم: «هيا.. تحرك.. العب في الباحة دون ضجة».

وأحنقه أن يلحظ نظرة خبيثة متشفية في عيني الجارة البدينة القاعدة قرب أمه على الأريكة، وحنى رأسه، وغادر الغرفة متمهلاً، وابتدأ يهبط السلم الحجري الموصل إلى الباحة بينما هو يحصي درجاته مردداً بصوت عال: «واحد.. اثنان.. ثلاثة».

وتجول مأمون في الباحة متضايقاً متذمراً، ثم جلس القرفصاء قرب أصص مزروع فيها نبات أخضر ذو أوراق صغيرة، وقد اعتادت أمه أن تعنى بالأصص أشد العناية، فتسقيها كل صباح، وتنقلها من الشمس إلى الظل.

وتطلع مأمون إلى أعلى حيث شباك الغرفة ثم مد يده بسرعة، واقتطف من كل أصيص بضعة أعواد من النبات الأخضر، وسارع إلى وضعها في فمه، وراح يمضغها متذوقاً طعمها الحامض. وكانت أمه تغضب وتؤنبه كلما لاحظت نقصاً في أعواد النبات الأخضر. وقد شكته مرة لأبيه الذي ضحك وقال: «سيصبح ابنك خروفاً».

وكان ثمة بحرة في وسط الباحة، دنا مأمون منها، وغمس يديه في مائها الساكن، وكانت المياه التي تتدفق من صنبورين حديديين مقطوعة.

وهرول مأمون إلى المطبخ، وأحضر قنينة ملأى حتى نصفها بزيت الزيتون، وصبّ منها بضع قطرات على وجه الماء، فتشكلت في الحال ألوان عديدة زاهية، سطعت ببهاء وفتنة تحت ضياء الشمس. وسئم مأمون بعد حين من مراقبتها، فأعاد إلى المطبخ قنينة الزيت، وأخذ قطعة فحم من كيس كبير من الورق ثم عاد إلى الباحة مبتهجاً، وهناك وقف أمام الحائط المطلي بالكلس الأبيض، وطفق يرسم عليه ما يشبه رجلاً. وضحك حين أضاف إليه ذيلاً، ورسم عينا كبيرة ذات أهداب طويلة، وشرع يتأملها، وخيّل إليه أنها ترمقه بحدة وغضب، فسرى إليه ذعر غامض. وتناهى إلى سمعه وقتئذٍ صفير قطار، فرمى قطعة الفحم، وتحول فوراً إلى قطار، وركض حول البحرة مقلداً صفير القطار وضجيج آلاته. ولم تمض سوى لحظات حتى أطلت أمه من الشباك، وهتفت بصوت غاضب: «اخرس يا عفريت».

فكف مأمون عن الركض، ولاذ بالصمت.

وأضافت الأم قائلة: «هيا، اخرج والعب في الزقاق».

فحنى مأمون رأسه، وفتح باب البيت، ولكنه لم يخرج منه إنما عاد مسرعاً إلى المطبخ، وأخذ من خزانة الطعام الخشبية رغيفاً، وقسمه إلى قطع صغيرة، حشاها في جيبي بنطاله ثم غادر البيت.

وابتهج وجه ناديا ابنة الجيران حين رأته، وقالت وهي تمد نحوه يدها القابضة على كرة من المطاط خضراء اللون: «تعال.. العب معي».

فلم يفه مأمون بكلمة إنما دس يديه في جيبي بنطاله،

وسار محني الظهر، بطيء الخطى وهو يحس أنه رجل ضخم الجثة، مثقل بالغم. وتبعته ناديا، ورددت بصوت رقيق: «تعال.. العب معي».

فتوقف مأمون عن المسير بينما كررت ناديا قائلة بإلحاح: «تعال العب معي».

فانحنى على الأرض، والتقط حجراً، ورفعه مهدداً، وقال بلهجة جافة: «سأضربك».

ففوجئت ناديا، وتراجعت إلى الخلف بينما كانت تطل من عينيها نظرة انكسار، تهم بالتحول إلى دموع.

وتابع مأمون سيره. وضغط بأسنانه على شفته السفلى حتى تألم، وعندئذٍ قال لنفسه: لا أحد يحبني.. سأموت.

وصمم وهو يلمس قطعة الخبز المحشوة في جيبي بنطاله ألاّ يرجع مطلقاً إلى البيت. وجدّ في سيره حتى نأى عن الزقاق، وبلغ شوارع عريضة، فحرص أن يسير بحذر وتوجس على الأرصفة بمحاذاة جدران المباني العالية بينما كانت السيارات والباصات تهدر في وسط الطريق.

وأخرج مأمون من جيبه قطعة خبز، واقتطع جزءاً منها بأسنانه، وشرع يمضغه ببطء وتشف. وكان الناس يمرون حوله متسارعي الخطى.

وأنشد الصخب أنشودة مفعمة بالحيوية والحرارة. وابتدأ ينأى عن مأمون انقباضه، ويحلّ محله فرح دون سبب. واسترعت انتباهه واجهة إحدى الدكاكين، وكانت مكتظة

بدمى قطط وكلاب ودببة وفتيات ذوات شعر أشقر وفتيان صغار يرتدون ثياب بحارة.

وابتسمت الدمى لمأمون، وخيّل إليه أنها جائعة، فمد قطعة الخبز نحوها، ولكن الدمى ظلت تبتسم دون حركة.

ومرت بجانب مأمون امرأة تمسك بيدها يد طفل يقاربه في العمر، له عينان كبيرتان ماكرتان. وفجأة فتح الطفل فماً واسعاً، وأخرج منه لساناً أحمر، فتجهم وجه مأمون، وانطفأ فرحه الصغير، وشتم الطفل الغريب الوقح الذي حاول أن يفلت من يد أمه ويهجم على مأمون، لكن أمه جرته إلى داخل محل لبيع الأحذية. واستأنف مأمون سيره ذاهلاً وسط الضجيج، ولكنه توقف بعد حين أمام واجهة لبيع الأزهار، وفتنه قرنفل قرمزي يتوهج خلف الزجاج. وتذكر مأمون وجه أمه، وتجسد في مخيلته باسماً طافحاً بالحنان، وخفق دمه مضطرباً في شرايينه، وارتبكت خطواته، وكان مأمون في تلك اللحظة مجرد طفل في السادسة من عمره، يمشي حائراً عبر شارع صاخب. وخارت عزيمته غير أنه عندما تخيّل صيحات أمه المؤنبة عاودته الشجاعة والتصميم على عدم الرجوع إلى البيت. وتخيّل البيت ساعة يقبل المساء. سيسأل والده عنه، وسيؤنب أمه، فتبكي وتقول: «فتشوا عن مأمون». وسيبحثون عنه في الشوارع كلها، وسيعثرون عليه بعد تعب كبير، وسيرفض مأمون العودة إلى البيت، وسيكون وجهه جامداً بلا دموع. وسيهديه والده دراجة لها ثلاث

عجلات وجرس، وستقبّله أمه وتعانقه بلهفة، وعندئذٍ فقط سيقبل بالرجوع إلى البيت.

وسار مأمون في شارع جديد، وإذا بحشد من الناس متحلقين حول ترام، فهرول مأمون، واندسّ بينهم، وشقّ بجسمه الصغير طريقاً له حتى أصبح يقف في المقدمة، فشاهد صبياً ممدداً على السكة الحديدية وقد بترت عجلات الترام ساقيه، وكان لون الدم أحمر امتزج بعويل الصبي الفاجع.

وأقبلت سيارة الإسعاف، وحمل الصبي إلى داخلها، ثم ابتعدت مسرعة، وظلت ساقا الصبي مطروحتين على سكة الترام.

وبكى مأمون بصوت عال، ودفع الناس الذين كانوا يصخبون فيما حوله، وأمسكه أشخاص عديدون، فأفلت منهم بينما كان نحيبه يتزايد. واستطاع رجل كهل امساكه من كتفيه وهو يقول: «ما بك يا ولد؟ لا تخف».

فردد مأمون: «أريد ماما».

-: «أين أمك؟».

-: «في البيت».

-: «أين بيتكم؟».

وتحلق حوله عدد من الرجال والنساء، وأخذوا يسألونه:

«ما اسمك؟».

«ما اسم والدك؟».

«أين تسكن؟».

وحاول مأمون أن يجيب، لكن صوته اختنق، وضاعت الكلمات كلها، فاكتفى بالبكاء بينما الناس يتكاثرون حوله ويشتد ضجيجهم.


سيرحل الدخان

كان أحمد بلا سجائر، كتلة لحم مسترخية على وجه سرير، يهبّ عليه من النافذة المفتوحة هواء مثقل بأريج صيف موشك على القدوم. وكان أحمد راغباً في إيقاظ زوجته النائمة بجواره ليقول لها: «رجع الصيف يا سميرة».

وكان أحمد يحب الصيف، ففي الصيف الماضي تزوج سميرة. ويحلو له على الدوام أن يتخيّل الصيف أميراً ذهبي الشعر والوجه، له يدان خشنتان وحانيتان، ما إن تلمسا الحقول حتى تمتلىء بالسنابل الصفر وتولد بهجة شبيهة بسرب عصافير يحوم عبر السماء الزرقاء. وكان باستطاعة أحمد في تلك اللحظة سماع أنفاس سميرة المتصاعدة بانتظام. ولقد استسلمت للنوم وهي حزينة غاضبة، فقد آلمها أن تتحدث طويلاً عن أختها التي زارتها في النهار وعن زواج قريبتها ثم تكتشف فجأة أنه لا يصغي إليها فتصيح حانقة: «تبدلت».

ثم تردف وقد ازداد سخطها: «لم تعد تحبني».

وحدّق أحمد آنذاك إلى وجهها الذي يحتفظ بطفولته متحدياً الأيام المتعاقبة، وقال بصوت بارد أجوف: «قولي باختصار إنك ندمت على الزواج من فقير، واشتقت إلى الحياة مع أهلك الأغنياء».

فقالت سميرة متسائلة بنزق: «لماذا تذكّرني بأهلي كأنهم عار؟».

وتفاقم حنقه، وأجاب بهزء: «لا تخطئي فهمي، أنا أفتش عن مصلحتك وسعادتك. ألم ينصحوك بعدم الزواج من شاب مثلي؟».

فشحب وجهها، وتلألأ الحزن في عينيها، وكان بمقدور أحمد وقتئذٍ أن يحدثها عن رسالة شقيقه القابعة في جيبه، ويطلب فيها نقوداً ليشتري سجائر، شقيقه الصغير الشرس الذي سجن بسبب إقدامه على ضرب أحد الأشخاص.

وكان أحمد بلا نقود أو سجائر، وتصور أحمد شقيقه السجين متجهم الوجه، متقلص الفم، ولا بد من أن حنينه إلى التدخين يعذبه دون رأفة. أحمد يتعذب مثله، ويحس بأن دمه ولحمه وفمه صراخ تواق إلى الامتزاج بسُحُب الدخان المتصاعدة من التبغ المحترق. وقد راقب قبل عودته إلى المنزل الناس يسيرون في الشوارع ويدخنون، ومنعته كبرياؤه من الانحناء والتقاط عقب سيجارة رماه إلى الأرض رجل أنيق بحركة لا مبالية من يده، وشعر أحمد بذل، ورثى لحاله، واكتسحته رغبة حمقاء في البكاء كامرأة هرمة فقدت جميع أولادها الشبان، وأدهشته هذه الرغبة.

ولقد كانت زوجته على حق حين هتفت: «تبدلت».

وكانت قبل عام تقول: «سنعيش سعداء».

فيكون أحمد الصدى الذي يردد كلماتها بحماسة: «سنعيش سعداء».

وكان أهلها يقولون لها: «ستجوعين معه».

وكان والده يردد على الدوام: «يولد الإنسان الفقير، وما إن يكبر حتى يركض وراء الرغيف ثم يجد نفسه عجوزاً قريباً من القبر».

ولقد ركض أحمد طويلاً، وما زال يتابع الركض. وتذكر كلمات أمه الموجهة إليه وإلى اخوته: «إياكم يا أولاد وأن تناموا وأنتم مكتئبون مهما تكن حياتكم بائسة».

وتطلع أحمد إلى زوجته الغارقة في النوم، ومد يده بحركة آلية إلى كتفها وهزها منادياً بصوت خفيض: «سميرة سميرة».

فانتفضت مستيقظة، وقالت بصوت واهن: «ما بك؟».

ـ: «لم أستطع النوم، معدتي تؤلمني. ربما أفادني الشاي الساخن».

ونهضت دون تذمر، وحينما أضاءت المصباح الكهربائي تطلعت إليه بوجه يرين عليه النعاس والحنان، وقالت: «لن أغيب طويلا».

وصاح أحمد حين فتحت الباب وهمّت بالخروج: «سميرة».

فالتفتت نحوه متسائلة: «أتريد شيئاً آخر؟».

فقال وهو يبتسم: «شعرت الآن براحة وزال الألم. ارجعي ونامي».

فأطفأت النور، ورجعت إلى السرير، وتمددت بجوار أحمد الذي سألها: «هل أنت غاضبة؟».

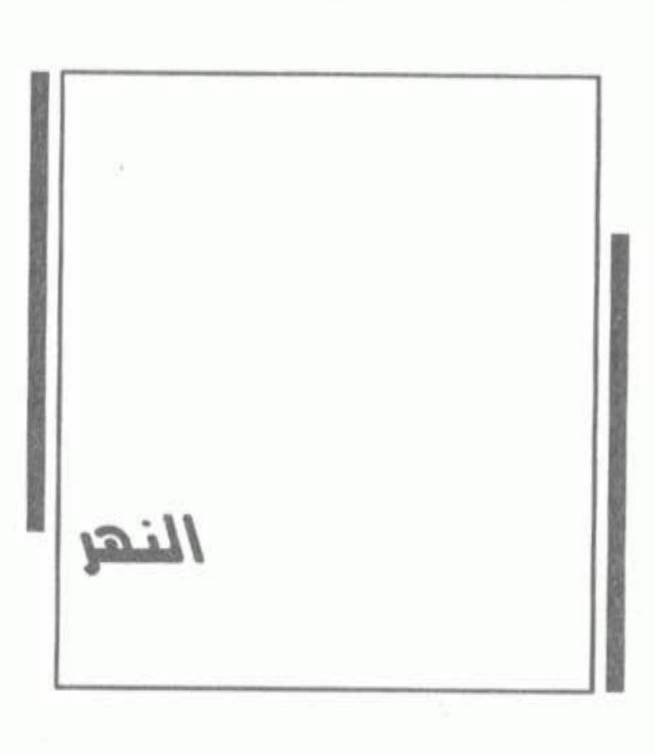
فأجابت بسرعة: «لا لا، كنت سريعة الغضب وبلهاء».

ودست وجهها في صدره كطفلة تلوذ بأمها، وبعثت حركتها هذه في جسده حبوراً كغناء عصفور فرح بالربيع العائد. وقال لنفسه: أصدقائي كثيرون. غداً يوم عطلة. سأستدين من أحدهم مبلغاً من المال، وسأرسل قسماً منه لأخي، وسأنفق الباقي. وتذكر مقهى أخضر خارج المدينة. وقال أحمد بصوت مرتفع مخاطباً سميرة: «أتذكرين المقهى الذي كنا نقضي فيه الكثير من أوقاتنا أيام الخطبة؟».

ولم تجب سميرة، فتابع قائلاً: «سنذهب إليه غداً، ونقضي نهارنا هناك. ما رأيك؟».

ولم يسمع من سميرة أيَّ جواب، فقد عاودت الاستسلام للنوم. وكان أحمد سعيداً، فرغبته في التدخين انطفأت. إنه يستنشق الأريج الغامض الذي يحمله الهواء المتسلل من النافذة المفتوحة التي كان يمر تحتها في تلك اللحظة سكران يغني بصوت خشن.

واستسلم أحمد للسبات رويداً رويداً بينما كان يتناهى إليه من بعيد صوت السكران الخشن الذي يجد فيه عذوبة عجيبة. وشاهد في أثناء نومه الصيف، وكان طفلاً ذهبي الشعر والوجه، يلعب على شاطىء رملي.


النهر

اتكأ عمر السعدي بمرفقيه على سور النهر، وتأمل منتشياً المياه المنسابة تحت ضياء الشمس، وخيّل إليه مدة لحظة خاطفة أن النهر امرأة مسحورة، غامضة الفتنة.

وكان النهر في القديم وحيداً، تتدفق مياهه عبر أرض مقفرة، ولقد ظلت الأرض مقفرة والنهر وحيداً حتى أقبل انسان ما، وجثا وقبّل التراب بخشوع، وعندئذ نبتت البيوت والدكاكين والمآذن والمقابر.

وكان عمر السعدي يعشق النهر. وقد ابتسم بغبطة وهو يرمق مياهه التي تغني بأصوات خافتة، وكان الهواء يبعثر خصلات شعره على جبهته بينما السيارات تمر خلفه على اسفلت الشارع.

وأقبلت بغتة سيارة الشرطة، وتوقفت بمحاذاة الرصيف، ونزل منها أربعة من رجال الشرطة، فحثّ المارة خطواتهم وقد استحالت وجوههم إلى أقنعة من الشمع الأحمر.

واقترب رجال الشرطة من عمر السعدي وأيديهم على

مقابض مسدساتهم المتدلية من خصورهم. واستدار عمر السعدي ليواجه أربعة وجوه متجهمة. وابتدره واحد منهم متسائلاً بصرامة: «أنت عمر السعدي؟».

فألصق عمر السعدي ظهره بسور النهر، وسمع صرخة سوداء نائية تمتزج بأغنية المياه العميقة. وقال بصوت خفيض مرتعش: «أنا عمر السعدي».

فأحاط به آنئذٍ الرجال الأربعة، واقتادوه إلى جوف السيارة، وهناك تحلقوا حوله، وكانوا كحراب صدئة.

وانطلقت السيارة تعبر الشوارع مسرعة، وبوقها يرسل ولولة مديدة.

وتحول غناء النهر استغاثة خافتة، واشتد اضطراب عمر السعدي، فأخرج من جيبه سيجارة وحاول أن يشعلها بيد مرتجفة غير أن واحداً من الرجال اختطفها من فمه بحركة سريعة، ورماها خارج السيارة، ثم التفت إلى عمر السعدي وصفعه قائلاً له: «أنت لست في مقهى».

فانكمش عمر السعدي مذعوراً. وكان النهر في تلك اللحظة نائياً تترقرق مياهه حزينة تحت شمس صفراء.

وتوقفت السيارة على حين غرة، وجر الرجال الأربعة عمر إلى جوف بناء حجري.

صعد عمر السعدي السلالم الحجرية. سار في الممرات الضيقة. دخل الغرف الكثيرة، وسمع صرخات كأن أصحابها يحرقون. وقال له رجال عابسو الوجوه: «أنت إذن عمر السعدي؟».

ودفع عمر السعدي أخيراً إلى زنزانة. وعندما أغلق بابها خلفه تطلع عمر السعدي فيما حوله، فألفى نفسه وحيداً، ولم يكن للزنزانة أي نافذة. وكان ثمة نور قليل ينبعث من مصباح كهربائي متدل من سلك حديدي قصير مثبت في السقف. وكان هناك أيضاً فراش ملقى على الأرض كجثة هامدة، فتمدد عمر فوقه، وأخفى وجهه في الوسادة، فدهمت أنفه في الحال رائحة غريبة، وخيّل إليه أنها رائحة مخلوقات ستهلك عما قريب.

وحاول أن يتذكر ذنباً اقترفه من دون أن يدري.

ولم يعد عمر السعدي فيما بعد يعرف الليل والنهار. وكان يعذبه أن ينأى عنه غناء النهر الخفي. وبقي في الزنزانة دون أن يوجه إليه أحد سؤالاً ما. وكان الحارس الذي يحضر إليه طعامه الشخص الوحيد الحي الذي يبصره في كل يوم، وقد حاول مرة مخاطبته، فكان الجواب ركلة جعلت عمر السعدي ينطرح على الأرض ويطلق صيحة ألم شبيهة بنباح كلب. وقد خيّل إلى عمر وقتئذ أن الحارس ليس له لحم أو عظم تحت ثيابه. وابتدأ من ذلك الحين يرهبه ويخشاه، وكان يحس أن دمه طفل ينتحب لحظة يتناهى إليه ارتطام حذاء الحارس بأرض الممر الصلدة، وابتدأ ينسى النهر وبيته. ولم تكن الشمس تشرق من جبهته. وقد شاهد مرة في أثناء نومه امرأة بيضاء الوجه، شعرها أسود، وعيناها خضراوان، انبثقت من النهر يقطر منها الماء، وكانت فائقة العذوبة، ولشعرها رائحة قمح يابس.

وحين استفاق عمر من نومه لم يجد المرأة في زنزانته

غير أنه أحس أنها موجودة قربه، فنادى بضراعة تلك المرأة الخضراء، وأغمض عينيه، وشاهد المرأة ثانية، وكانت عيناها مغرورقتين بالدموع، ولقد ودّ لو تتكلم، ولكنها ظلت صامتة. وتخيّل عمر محكمة قاضيها مجلل بالسواد، يطرق منصته بقبضة ضخمة الحجم، ويتلو حكماً بأن يسجن عمر السعدي في قفص حتى الموت.

وفتح عمر عينيه، وأسعده أنه لم يحاكم بعد. واسترعت انتباهه يده التي كانت تتحرك وحدها. فتأملها ملياً، وابتسم إذ خامره إحساس بأن هذه اليد غريبة عنه، وتابع تأملها بخوف، فتحركت الأصابع الخمس كأنها أذرع صغيرة لعقرب، وانحدرت الأصابع إلى أسفل، ولمست أرض الزنزانة. وأيقن عمر أن يده عقرب يدبّ نحو فريسة ما، واجتاحته حماسة مفاجئة تبغي القضاء على عدو مبهم. ودبّ العقرب ساحباً خلفه عمر السعدي حتى اصطدم بأسفل الحائط، وعندئذ نهض عمر السعدي واقفاً، وابتدأ يمشي محصياً خطواته: «واحدة اثنتان، ثلاث». وتوهج رقم ثلاثة في مخيلته: ثلاث نجوم، ثلاثة جياد، ثلاثة أنهار، ثلاث فتيات ذوات شعر أسود ووجوه بيضاء.

وبلغ مسمعه وقع حذاء ثقيل يدنو من باب الزنزانة، فهرع نحو فراشه، وجلس فوقه، وتجمد متضائلاً، يغمره خوف غريب، وتفاقم خوفه حتى تحول إلى ألم يرعش اللحم والعظم.

ودار مفتاح في ثقب قفل الباب، فاشتد هلع عمر

السعدي، ولم يحاول أن يتطلع نحو الباب، فقد كان يعلم أن القادم هو الحارس.

وانحنى الحارس شبحاً طويلاً أسود، ووضع على الأرض صحناً ورغيفاً. وارتجف عمر، وابتهل بذل ألا يقترب الحارس منه، ويفاجئه بركلة. وهمس مخاطباً المرأة الخضراء: «أنقذيني أنقذيني».

وغادر الحارس الزنزانة، وأوصد الباب خلفه، ثم سمع عمر السعدي وهو يلهث الحارس يبتعد عن الزنزانة ضارباً أرض الممر بحذائه الثقيل، وعندئذٍ تنهد بارتياح، وأدار رأسه نحو الباب وقد انحسر خوفه، ولم تتكلم المرأة الخضراء، ولم يسمع عمر هدير النهر.

وتعالى فجأة مواء قط، فعاد الخوف ضارياً إلى شرايين عمر، وحدق بإمعان، فأبصر قطاً أبيض بالقرب من صحن الحساء والرغيف، فدهش وامتلكه الفرح، ودنا منه محاولاً إمساكه، فقفز القط متراجعاً إلى الوراء، فحمل عمر السعدي الرغيف وصحن الحساء، وأقعى في منتصف الغرفة تحت نور المصباح الكهربائي ثم حرك أصابع يده قائلاً للقط: «تعال.. بس بس».

وكان القط ذا عينين برّاقتين، وقد صدر عنه مواء خافت متقطع وهو يقترب من عمر.

وقال عمر للقط: «أنت جوعان يا مسكين».

واقتطع عمر من الرغيف قطعة صغيرة، واختار أن تكون لينة، وغمسها في الحساء، ومدها إلى القط، فشمّها القط،

ولم يأكلها وإنما تمسّح باليد التي تمسكها، فقال عمر له: «كلْ.. ألست جائعاً؟».

فتلقف القط قطعة الخبز، وأخذ يمضغها بسرعة، وما إن ابتلعها حتى راح يموء مطالباً بقطعة أخرى. وابتهج عمر، وطفق يطعم القط وهو يرمقه بحنان، ومضى القط حين شبع نحو الفراش، وقبع فوقه وأخذ يلعق يده، ويمسح بها جلده. وقعد عمر السعدي على الأرض، وراقب القط هنيهات ثم دنا منه، ومسح بيده على ظهره، وحكّ بأصابعه تحت ذقنه، فهرّ القط راضياً.

وسأله عمر بصوت مرتفع: «ماذا فعلت؟».

وصمت لحظة ثم تابع قائلاً: «ماذا فعلت حتى سجنوك؟».

فهرّ القط ثانية هريراً سعيداً، وأيقن عمر أن القط يفهم كلماته ولكنه عاجز عن مبادلته الحديث.

وقال عمر: «ماذا فعلت، هيا قلْ لي، ألسنا أصدقاء؟ هل قتلت قطاً؟».

واغتبط عمر بسماع صوته، واستأنف يحدث القط: «هل سجنوك لأنك لم ترتكب ذنباً؟ هل تملك بيتاً؟ أنت تنام في الشارع وتجوع».

وأغفى القط قليلاً. وابتسمت المرأة الخضراء، ولكنها لم تفه بكلمة، وظل عمر يراقب القط حتى أفاق من نومه.

وتمطى القط وتثاءب ثم تجول في جنبات الزنزانة، فقال له عمر: «ها.. بيتنا صغير».

واتجه القط نحو الباب ووقف لصقه، وابتدأ يموء، فقال له عمر السعدي: «اسكت».

فلم يأبه القط له، وتابع مواءه، فاستولى الغضب على عمر السعدي، وركل القط ركلة قوية، فأطلق القط مواء متألماً، ولكنه لم يبتعد عن باب الزنزانة، واستمر يموء بحدة. وخيّل إلى عمر السعدي أن المواء مفعم بالحنين العارم إلى الشمس والهواء والنجوم والشوارع والنساء اللواتي لهن عيون خضر وشعر أسود ووجوه بيض، وعاد إليه شوقه إلى الحياة خارج الزنزانة غير أنه حاول أن يبدد هذا الشوق، وتهالك على الأرض حائراً هلعاً، وقال للمرأة الخضراء: «سأهلك.. سأهلك».

وصعد مواء القط حاداً عنيفاً كأنه صراخ الدماء المندفعة في شرايين عمر السعدي. ولمست المرأة الخضراء جبهة عمر، ووجد عمر نفسه يقترب من باب الزنزانة، ويجثو على ركبتيه ويلصق وجهه بحديد الباب.

وسمع عمر السعدي هدير مدن مفعمة بالصخب، وتعالى صوته مقلداً مواء القط. وكان صوته في البداية مرتعشاً مرتبكاً، ولكنه ما لبث أن اشتد وامتزج بمواء القط في صراخ شرس موحش. وضحكت المرأة الخضراء بعذوبة، وغمغمت بكلمات لم يستطع عمر سماعها ثم غابت في النهر.

وطفق عمر يصرخ، واجتاحته الغبطة إذ سمع الحارس يدنو من باب الزنزانة، فنهض ووقف مشدود القامة، ينتظر بلهفة ركلة الحارس.

ربيع
في الرماد

كان في قديم الزمان مدينة صغيرة، بنيت وسط حقول فسيحة خضر، يرويها نهر سخي المياه. وكان ناسها جميعاً يحملون في جيوبهم قطعاً من الورق السميك كتب على كل منها اسم من الأسماء.

كان ناسها مزيجاً من الأغنياء والفقراء، وكان الأغنياء مهذبين لطفاء. يملكون أقنعة بيضاً وأحذية لامعة، ويجيدون الرقص والتحدث بنعومة، ويتقنون الانحناء برشاقة وتقبيل أيدي النساء، وكان أطفالهم ينادون أمهاتهم برقة زائدة: «ماما».

وكان الفقراء يقهقهون بخشونة في لحظات الفرح، ويكثرون من البصق، ويؤمنون بأنهم سيحلون ضيوفاً في الجنة، وكانوا ينادون أمهاتهم بصوت فظ بصوت ممطوط: «يا أمي».

وكان الأغنياء والفقراء يحترمون الموتى احتراماً شديداً، فعندما تمر جنازة يتوقف المارة عن السير، ويتألق الحزن والخوف في عيونهم، ويساهم بعضهم في حمل نعش

الميت المجهول الاسم مسافة غير قصيرة. ولحظة يفتحون أفواههم لتتلقف اللقمة الأولى من طعامهم، كانوا جميعاً يقولون بخشوع: «بسم الله الرحمن الرحيم». ويتمتمون في ختام الطعام: «الحمد لله رب العالمين».

وعندما كانت تأثم فتاة ما في المدينة، يفصل رأسها عن جسدها دون تردد بسكين كبيرة النصل.

وكان العمال يشتغلون ثماني ساعات في اليوم.

ويتلاقى العشاق خلسة في عتمة دور السينما، وهناك تتعانق الأيدي بحرارة.

ويدأب الأطباء على إسداء نصائحهم بوقار: «امضغوا الطعام جيداً.. ناموا في وقت مبكر.. ابتعدوا عن السجائر والخمور».

ويهز الكهول رؤوسهم بحسرة وأسف وهم يغمغمون: «عمّ الفساد.. المرأة تلبس البنطال.. الابن لا يحترم أباه.. هذه هي العلامات المنذرة بانتهاء حياة العالم».

وكان الأصدقاء يقولون عندما يتقابلون في بداية النهار: «صباح الخير».

وكان لتلك المدينة على الرغم من صغرها شمس تشرق في وقت معين، ثم تأفل كذلك في وقت معين. وكان لها أيضاً ليل مرصع بنجوم كثيرة العدد، تبهت حالما يبزغ القمر الأبيض.

وكان ثمة رجل له اسم ما يحيا في هذه المدينة، وجهه جمجمة التصق بعظمها جلد شاحب جاف. وكان يشتهي

بضراوة أن يكون زهرة أو عصفوراً أو غمامة تحب السفر، ولم تستطع الكآبة أن تهزمه على الرغم من علمه أنه لن يكون لا زهرة ولا عصفوراً ولا غمامة تحب السفر، ولكنه سئم من العيش وحده في منزل صامت موحش، فصمم في لحظة من اللحظات الرمادية على شراء امرأة، امرأة قد تؤنسه وتبدد بصوتها الصدأ المتشبث بأيامه. وقصد الرجل سوق الجواري، واختار امرأة لها عينان كبيرتان ينتحب في غوريهما أسى ممتزج بسحر شديد الغموض. ودفع الرجل ثمنها وهو يقول لنفسه: ربما استطاعت أن تقتل القنفذ الباكي في دمي.

ولم يقل الرجل أيَّ كلمة للمرأة في أثناء سيرهما في الطريق، ولكنه عندما وصلا إلى المنزل سألها: «ما اسمك؟».

فأجابت المرأة بصوت خفيض ناعم مرتعش بعض الشيء: «اسمي ندى».

وكان الرجل قاعداً آنئذٍ بالقرب من المرأة، واضعاً على ركبتيه يديه الخشنتين اللتين كانتا مرتجفتين، تهدر في عروقهما دماء وحشية. وتمنى لو كانت المرأة في تلك اللحظة عارية على شاطىء رملي، تواجه بحراً أزرق يبلل نهديها بمياهه الساخنة المالحة، وقال بلهجة مضطربة: «من أي بلد أنت؟».

-: «ليس لي بلد».

فتأملها ملياً، ثم قال: «أنت جميلة».

وكان فمها حيواناً غامضاً صغيراً، قرمزي اللون، بدا لعيني الرجل أنه فم وحيد بطريقة ما. وتقلصت أصابعه، وسرت فيها رعدة قاسية وهو يقول بتؤدة: «اسمك جميل أيضاً».

فقالت المرأة وهي تبتسم بغموض: «اسمي الحقيقي شهرزاد».

فهتف الرجل وقد استولت عليه الدهشة: «أأنت شهرزاد؟».

فقالت المرأة: «أنا شهرزاد.. لم يحصدني الموت.. شهريار مات».

قال الرجل: «لم يمت شهريار.. ما زال حياً».

قالت المرأة: «آه يا مولاي».

ـ: «انهارت مملكتي يا شهرزاد».

ـ: «افترقنا عن بعضنا».

ـ: «تهنا عبر الأرض الكبيرة».

ـ: «بحثت عنك في كل الأمكنة».

ـ: «أرغمني الجوع على البكاء».

ـ: «سُجنتُ في غرفة موصدة الأبواب».

ـ: «صرت متسولاً».

ـ: «مشيت في الطرقات وأنا متلفعة بملاءة سوداء».

ـ: «حفرت الأرض بأظفاري».

ـ: «عشت امرأة وحيدة في مدن يسكنها الرجال فقط».

-: «بصق في وجهي».

-: «اشتراني رجال يملكون ذهباً».

-: «أنا رجل مسكين. لماذا تركتني يا إلهي؟».

-: «أواه كم تعذبنا».

-: «آه كم تعذبنا».

وتعانقا بعنف، وانتحبا طويلاً. وهمس الرجل بصوت متهدج: «أحبك.. أحبك».

فتطلعت إليه بعينيها المبللتين بالدمع، وكانت تصرخ في أعماقهما شهوة مدت إلى لحمه مخالب لم يستطع الافلات منها، فاحتضن جسد الأنثى بلهفة، وما إن التصق فمه بفمها حتى تناهى إلى مسمعه صراخ آت من الشارع: «هجم الأعداء.. اقتلوا.. اقتلوا.. إلى الحرب».

وتصاعد قرع طبل ذي إيقاع مهيب غاضب لم يقدر الرجل أن يتجاهله، فأبعد عنه جسد الأنثى بحركة صارمة، صاحت المرأة متوسلة: «لا تتركني.. لا تحارب.. ابق جانبي».

قال الرجل: «اسكتي.. أزقة المدينة.. أمي تناديني».

وتناول سيفه المعلق على الحائط، وانحدر إلى الطرقات حيث كان الرجال يتقاتلون في عتمة المساء.

واندفع الرجل إلى قلب المعركة، وشرع يسدد سيفه نحو أيِّ صدر يجده أمامه. وكان يبتهج كلما انزلق النصل الطويل الصلب مخترقاً اللحم اللين بحركة شرسة ضارية.

ـ: «بصق في وجهي».

ـ: «اشتراني رجال يملكون ذهباً».

ـ: «أنا رجل مسكين. لماذا تركتني يا إلهي؟».

ـ: «أواه كم تعذبنا».

ـ: «آه كم تعذبنا».

وتعانقا بعنف، وانتحبا طويلاً. وهمس الرجل بصوت متهدج: «أحبك.. أحبك».

فتطلعت إليه بعينيها المبللتين بالدمع، وكانت تصرخ في أعماقهما شهوة مدت إلى لحمه مخالب لم يستطع الافلات منها، فاحتضن جسد الأنثى بلهفة، وما إن التصق فمه بفمها حتى تناهى إلى مسمعه صراخ آت من الشارع: «هجم الأعداء.. اقتلوا.. اقتلوا.. إلى الحرب».

وتصاعد قرع طبل ذي إيقاع مهيب غاضب لم يقدر الرجل أن يتجاهله، فأبعد عنه جسد الأنثى بحركة صارمة، صاحت المرأة متوسلة: «لا تتركني.. لا تحارب.. ابق جانبي».

قال الرجل: «اسكتي.. أزقة المدينة.. أمي تناديني».

وتناول سيفه المعلق على الحائط، وانحدر إلى الطرقات حيث كان الرجال يتقاتلون في عتمة المساء.

واندفع الرجل إلى قلب المعركة، وشرع يسدد سيفه نحو أيِّ صدر يجده أمامه. وكان يبتهج كلما انزلق النصل الطويل الصلب مخترقاً اللحم اللين بحركة شرسة ضارية.

وحينما انتهت المعركة، وقف الرجل وقد بلل جسده العرق والدم. وانتابه هلع شديد إذ تبين له أنه الرجل الوحيد الباقي في قيد الحياة، أما الرجال الآخرون فقد تناثرت جثثهم على اسفلت الشارع أكواماً من اللحم الممزق، فارتمى على الأرض الدامية، وطفق ينتحب بمرارة بينما كانت النيران تلتهم منازل المدينة وقتلاها.

وكفّ الرجل عن البكاء لحظة اقتربت منه النيران، وسارع إلى الهرب خارج المدينة حيث الحقول الشاسعة، وهناك أبصر المدينة وقد استحالت كتلة ضخمة من نار حمراء متوقدة في قلب الليل الأسود، فتهالك على الأرض المعشوشبة مستسلماً لنوم عميق، ولم يستفق إلاّ عندما أشرقت شمس نهار جديد.

كان السكون مهيمناً في الأرجاء كافة، وكانت المدينة كومة كبيرة سوداء يتصاعد منها الدخان. وسمع الرجل صوت بكاء خافت، فأجال نظراته فيما حوله مستطلعاً إلى أن وقعت على فتاة في مقتبل العمر مرتمية على العشب، فدنا منها وسألها: «لماذا تبكين؟».

ـ: «احترقت المدينة. مات الجميع».

ـ: «إذن لم يبق أحد».

ولم تجب الفتاة وإنما استأنفت نحيبها، فسألها ثانية: «لماذا تبكين؟».

فقالت وهي تخفي وجهها في راحتيها: «أنا جائعة».

فتركها الرجل، ومضى يبحث عن طعام ما. واغتبط إذ

عثر على شجرة تفاح ذات أغصان مثقلة بثمار ناضجة، فاقتطف بعضها، وحمله إلى الفتاة، وأخذ يراقبها بحنو وهي تأكل التفاح بنهم.

وعاوده الحنين إلى أن يكون زهرة أو عصفوراً أو غمامة تحب السفر.

وقال لنفسه متسائلاً: «هل اسم الفتاة شهرزاد؟».

ومسحت الفتاة وجهها بطرف ثوبها، ورمقت الرجل بامتنان عميق.

كان وجهها وديعاً. وتذكر الرجل أيام طفولته الآفلة، وقال بحزن: «إذن لم يبق سوانا من الأحياء؟».

وظلت الفتاة صامتة غير أن شفتيها انفرجتا قليلاً، وشاهد الرجل وردة حمراء، فاقتطفها وقدمها بارتباك إلى الفتاة التي تقبلتها ببسمة خجول، أيقظت الفرح وجعلته يردد في شرايين الرجل أجمل أغانيه.

وعاون الرجل الفتاة على النهوض، ثم سارا بخطى متمهلة نحو المدينة الميتة السوداء.

وسمعا بغتة عصفوراً يغرد، فتوقفا عن السير، وتلاقت أعينهما في نظرة طويلة، وخيّل إلى الرجل أنه يسمع ضجيج أطفال ممتزجاً بعويل ناء.

وتابع الرجل والفتاة مسيرهما وقد تعانقت يداهما بود وألفة.

وأمامهما كانت الشمس فتية وضاءة.


القرصان

١ ـ كنت قرصاناً

كان القرصان رجلاً مديد القامة، وجه قاس وشرس، تشب إلى عينيه حين يتبسم نظرة صارمة شبيهة بنصل سيف سطع بغتة تحت ضوء الشمس. ولم يمت عندما حطمت العاصفة سفينته، فقد حملته الأمواج إلى أحد الشواطىء.

وأشرقت الشمس، وألقت فوقه شعرها الأصفر الحار غير أنه ظل مستلقياً دون حركة بينما كان الرمل الدافىء المبلل يحتضن وجهه، وأدرك أنه سيظل حتى الموت وحيداً كغراب هرم، بلا سفينة وبلا رجال وبلا حبيبة.

ولقد كان القرصان يعشق امرأة اسمها رندا، بيضاء اللحم، تضحك بعذوبة، وشعرها الأسود يجعله يرتعش وينتظر سماع صرخة المحارب العاري الذي لا يملك مقعداً في مقهى ويملك رمحاً وجسداً مظلماً. ولقد ماتت رندا في الليل، ولقد انحنى القرصان، وقبّل باشتهاء فمها البارد، وعندئذٍ سمع أصوات الريح الغاضبة، وهو متأكد من أن رندا الآن في قعر البحر أو ربما كانت جثة طافية على وجه

الميا، ولكنها كانت طيبة القلب فلم تتخلَّ عنه، ورافقته إلى الشاطىء بشكل غامض.

وفيما مضى من الأيام، جاب القرصان البحار. نهب السفن. قهقه أمام الحرائق، اغتصب نساء. سيفه تلطخ بالدم. وطأ الذهب بازدراء وجشع. شاهد المدن الغريبة. ضحك دون فرح. سكر طوال ليال. وكان إلهاً صغيراً يقف في بعض الليالي وحيداً على سطح سفينته، يصغي إلى صخب رجاله الثملين، ويحملق إلى السماء المملوءة بالنجوم باحثاً عن نجم ما لم يبزغ.

رندا قربه، يدها على شعره. قالت: «لا تبك».

فنهض القرصان، وابتعد عن الشاطىء والبحر، واندفع نحو شوارع المدينة، وكانت وقتئذٍ غاصة بالناس. ولم يبتسم له أحد، ولم ترمقه أيُّ امرأة. وكان النهار عصفوراً أبيض، ورندا صامتة ذات وجه أسيان، قال لها: «هل تشتغل الآلهة ثماني ساعات؟».

رندا صامتة تحدق بوجوم إلى مرآة كبيرة بينما الهواء يداعب خصلات شعرها الأسود. وأحس القرصان بأن ثمة انساناً مريضاً، يختبىء خلف جلده، ويئن أنيناً فاجعاً.

قالت رندا فجأة: «رحل القطار».

وكانت موسيقى الحزن تنشد بضراوة محاولة أن تكون طوفان رماد، يجتاح العالم، ويطفىء كل الأنوار. آه يا أفراح الأرض المتوارية.

وابتدأت مدية الليل تنغرس في قلب النهار، وتساقطت العتمة ثلجاً أسود، وأضيئت المصابيح الصفر في الشوارع.

ولمس القرصان تجاعيد وجهه وشعره الذي تسلل إليه الشيب، وقال لرندا: «سيرحل قطار آخر».

وكانت النجوم تتألق ببرود في الأعالي، وكان ثمة فندق في الميناء، فأحصى القرصان نقوده، ثم قصد الفندق، فقد كان بحاجة إلى نوم طويل، وأعطي سريراً في غرفة ضيقة، جدرانها مدهونة بلون أصفر باهت.

نام القرصان. رندا تضحك بعذوبة. لحمك يا حبيبتي نهر خمر أبيض، وفي فمك صيف نائم عيناي.. وجهي.. أصابعي.. بحارة قواربهم محطمة، ويحلمون بالتشرد عبر السهول المعتمة. لكم أشتهي رؤية شعرك الأسود المديد مبعثراً. طفل يضحك في دمي. وهؤلاء هم رجالي يصعدون من أعماق البحر حاملين جثة الموت المقهور، وها هي ذي سفينتي تمخر عباب البحر، وحبيبتي رندا تضحك، والسحب تنأى عن السماء. يا وجه السماء الأزرق، يا رفيقي المرح.. أقبل أقبل.

وأفاق القرصان في الصباح، وقعد في ردهة الفندق، وكان ثمة أناس حوله، غرباء كلهم، أتوا من مدن وقرى نائية. وتساءل: لماذا أتوا إلى هنا؟ سيموت الرجل الهرم. ستتزوج الصبية، ستنجب أطفالاً، ستتشاجر أحياناً مع زوجها. سيكبر الطفل، وسيتعرف إلى الكلمات والله والمدن، وستعانقه الأفراح والأحزان، وسيبحث عن الفرح ده ولن يجده. المرأة التي ولى شبابها، ستنزوي في

الأماسي، وتحكي ذكرياتها، ولن يقول لها أحد: يا حبيبتي، وسترتجف في ليالي الشتاء، ولن يؤنسها سوى قط جائع. الشاب المهتم بثيابه وشعره وحذائه، ها هو ذا كصرخة جامحة، ولكنه سيضمحل رويداً رويداً.

الفندق: إنه مكان ضيق جداً، مغروس في قلب العالم الكبير، تتلاقى فيه دوامة وجوه غريبة، تأتي لتنام ثم تحتسي القهوة صباحاً وترحل.

قالت رندا: «السماء فارغة».

وتطلع القرصان عبر النافذة إلى السماء، ولم يعثر على عصفور أو غيمة. شرب فنجان قهوة. دخّن سيجارة على مهل. تجرّع كوب ماء بارد. ثم ترك الفندق، ومشى بطيئاً وعيناه مغمضتان نصف إغماضة. رندا امرأة جميلة تحب الموسيقى. موسيقى الأرض نائية. صوت رندا وحيد بلا كلمات. صوتها موسيقى تنساب إلى الشرايين، وتحول الدم عطراً أسود.

وأبصر القرصان فتاة صغيرة، عمرها لا يتجاوز تسعة أعوام، وكانت تقف قرب باب أحد المنازل، ملصقة ظهرها بجدار أبيض، وترتدي ثوباً أزرق قصيراً، يكشف عن ركبتين بلون غيوم الصيف، وقد رمقهما القرصان بفضول خبيث، فأمسكت الفتاة الصغيرة طرف ثوبها، ورفعته قليلاً عن فخذيها بينما كانت تطل من عينيها نظرة عاهرة عجوز، بعثت في أوصال القرصان هلعاً متوحشاً. اخجلي يا صغيرة. أحبي العشب والورد والأشجار والغيوم

والحمامات البيض. اهتفي فرحة بالمطر لحظة ينهمر. اضحكي. العالم كله ملكك. قفي في الشوارع الصاخبة وأغمضي عينيك وانصتي للغناء الصادر من حنجرة المدينة: أصوات الرجال والنساء والأطفال والسيارات والدراجات. مات الخوف. حكايات جدتك كلمات ليلة مملة. كوني نجمة أو قطرة ماء أو كوني دمية ساذجة الملامح يرمقها الأطفال بجذل، وتجبرهم على إطلاق صيحات الدهشة والتعجب حين تغمز بعينيها. وفي ليالي الصيف تمددي على سطح عال، وستنحدر النجوم، وتلمس شفاهها وجهك ثم تنام نجمتان في عينيك. ما أجمل العيون التي تنام النجوم في أغوارها.

وحثّ القرصان خطواته، فقد كان جائعاً للغاية وبلا نقود. الخبز أبيض وراء الزجاج، وعناقيد العنب حمراء مكدسة في صناديق خشبية، والتفاح أصفر وأحمر في السلال، وثمة تين أخضر.

وبلع القرصان لعابه بصعوبة، ولم يستطع أن يمد يده، وينال ما يشتهي من طعام، فهو لا يملك نقوداً ولا سيفاً، وكان رجال الشرطة منبثين في الطرقات والأسواق، يراقبون بعيون يقظى صارمة بينما تتدلى المسدسات الضخمة من أحزمة جلدية ملتفة حول خصورهم.

وقف القرصان طويلاً أمام مرآة قابعة في واجهة إحدى المحلات، وشاهد في المرآة رجلاً أصفر الوجه، ينتحب في عينيه فقراء الأرض كلهم. وخيّل إلى القرصان أنه يرى هذا الرجل لأول مرة ثم توهم خلال لحظات أنه أبصره من قبل،

وكان مسمراً على خشب صلد، وكانت المسامير الغليظة مزروعة في يده وقدميه.

واستأنف القرصان مسيره برأس منكس بذل، وفوجىء بعد حين برجل أنيق الثياب، يصدمه صدمة قاسية، ثم يبادره قائلاً بفظاظة: «هيه.. هل أنت أعمى؟».

ولم يجب القرصان، فقد كانت سفينته وبحارته ورندا في تلك اللحظة في جوف البحر، ورفع الرجل الأنيق يده، وصفع القرصان صفعة قوية ثم تابع سيره وهو يزمجر غاضباً. وانبثق الدم في الحال من أنف القرصان بغزارة.

هتف بلهفة: «رندا».

وكانت رندا آنئذٍ امرأة شاحبة، تنصت لموسيقى بعيدة.

وهتف القرصان مرة ثانية بذعر: «رندا رندا».

وكانت رندا مرتمية على طاولة بيضاء في غرفة بيضاء. وامتلكت القرصان رغبة ضارية في التدخين، ولم يجد في جيوبه أي سيجارة، فانحنى، وتناول بأصابع ترتجف خجلاً نصف سيجارة ملقاة على الأرض، وتلقفتها شفتاه بكثير من الحنين. وعبّ الدخان بنهم شديد ثم تنهد بارتياح، ولكنه بعد قليل شعر بضعف مباغت، وفقد توازنه، ولم تستطع قدماه حمل جسمه، فانهار على الأرض، وتجمع الناس حوله بسرعة متسائلين: «هل هو سكران؟ هل هو ميت؟».

وانطلقت سيارة الاسعاف البيضاء بسرعة تخترق الشوارع، وبوقها يرسل صراخاً حاداً، تناهى إلى مسمع

القرصان الغارق في الغيبوبة كأنه صفير قطار موشك على الرحيل.

٢- المهرج

اصمتي أيتها المرأة السوداء، فأغنيتك المجروحة هشمت وردة من زجاج مضيء كانت تحيا في قلب الأمير. وتهامس الجند والخدم والجواري والندماء: «مولانا الأمير حزين».

وكان المهرج جالساً على مقعد خشبي في حديقة القصر يرقب الرماد المنهمر من فم السماء. وعندما مثل بين يدي الأمير، جثا على ركبتيه، وأحنى رأسه، وانتظر صامتاً.

وتكلم الأمير: «أضحكني أو أقطع رأسك».

وكان المهرج في تلك اللحظة كئيباً، وكلماته كلها امتلكها أمس ناء، فقال: «كان يعيش في الأيام القديمة قرصان له سفينة ورجال وحبيبة».

فتجهم وجه الأمير، وتابع المهرج قائلاً: «آه يا مولاي.. لقد اندثر الماضي، وأصبح القرصان مهرجاً».

قال الأمير: «سئمتك. سيقطع رأسك».

وتهامس الجند والخدم والجواري والندماء: «سيقطع رأس المهرج».

وتخيّل المهرج سفينته ذات الأشرعة البيض تمخر البحار، ورجاله يلوحون بسيوفهم ويقهقهون، وحبيبته رندا تمشط شعرها الأسود تحت الشمس، ثم تخيّل سيفاً يهوي على

عنقه، ويطيح برأسه الذي سيتدحرج على البلاط اللامع. وحينئذٍ انتحب المهرج كامرأة هرمة، وبللت دموعه وجهه المتجعد. واستولت الدهشة على الأمير ثم أخذ يضحك وقال: «أحسنت. يا لك من ممثل قدير!».

وتهامس الجنود والخدم والجواري والندماء: «لن يقطع رأس المهرج».

وعاد المهرج إلى حديقة القصر، وهنالك وجد أخت الأمير، ترنو إلى نجوم السماء، وكانت امرأة جميلة، ذات شعر أسود متناثر بإهمال على كتفيها. قالت متسائلة: «أضحك أخي؟».

قال المهرج: «ضحك مولاي الأمير».

قالت الأميرة: «الدموع في العينين أجمل من الوجه الضاحك».

قال المهرج: «الفاجع أن يبكي القلب بعينين جافتين».

قالت الأميرة: «أنا لم أغادر القصر، لم أعرف العالم بعد».

فاجتاحت المهرج موجة عارمة من المشاعر الدافئة، واستعاد فتوته الهاربة دفعة واحدة، وأجاب بحرارة: «الناس خارج القصر يجوعون، وأحياناً ينتزعون قلوبهم من صدورهم ويبيعونها ويشترون بثمنها خبزاً».

قالت الأميرة بدهشة: «اوه اوه».

قال المهرج: «ويبكون بكاء مراً عندما لا ينهمر المطر».

قالت الأميرة: «ألا يعرفون الفرح؟».

قال المهرج: «يولد الفرح فقط عندما يتلاقى جسدان متآلفان أو عندما يجتمع بضعة أصدقاء ويتحدثون عن التعاسة والموت والعمل اليومي أو عندما ينام البشر ويحلمون».

قالت الأميرة مبتهجة: «لنهرب ونجوب العالم».

قال المهرج: «العالم كبير جداً وسنموت قبل ان نعرفه كله».

قالت الأميرة بإصرار: «لنهرب».

وخيّل إلى المهرج أنه يسمع ضجيج المدن المكتظة بالبشر، فقال: «سأهرب وحدي».

قالت الأميرة بحزن: «سيقتلك حراس القصر».

وتمكن المهرج من الإفلات من القصر دون أن يلمحه أيُّ حارس. وثمل برؤية النجوم والليل الصامت وأنوار المدن. وأحس وهو يعدو بأنه قد استرجع سفينته ورجاله وحبيبته رندا غير أن ما توهمه لم يعش سوى لحظات ثم توارى، وانطفأت غبطته. وأدرك مرة ثانية أنه سيظل حتى الموت وحيداً كغراب هرم. وتوقف عن السير مكتئباً، وألصق ظهره بجذع شجرة، وتذكر يداً صغيرة حسرت ثوباً أزرق عن فخذين بيضاوين، وانتابه خوف مفاجىء، وأيقن بأنه قد يتحول بعد قليل سرب جراد جائعاً، سيمحو اخضرار العالم.

٣ ـ سقوط الرجل الشرير

ما الذي سيحدث بعد دقائق؟ نحن نحيا في عالم غامض. قد نضحك ونبكي ونموت في لحظة واحدة. القمر رابض فوقنا، لا يهرب. وجهه شاحب، ينتظر رؤية الدم الذي سيهرق. ما الذي سيحدث؟ بلدتنا صغيرة وديعة، يعيش أهلها بلا أسئلة، ولقد انقض عليها رجل شرير مجهول. وها هو ذا موثق بحبال غليظة.

خمسة رجال قبضوا عليه بعد أن طاردوه طويلاً.

نحن ننتظر، وضوء القمر يرتعش وينتظر، وأرض الشارع تنتظر أيضاً. ما الذي سيحدث؟

خمسة رجال، الحقد زرع أزهاره في قلوبهم، ويتألق في أعينهم فولاذ السيوف القديمة. نحن نسمع أصوات غضبهم:

«أحرق منزلي.. لم يقتل زوجتي.. تركها خلفه لتعذبني رؤية جسدها المدنس».

«فقير أنا فقير. أملك كلباً وديعاً فقط.. لا ينبح ولا يعضّ أحداً ويحب الناس كلهم. لماذا حطم رأسه بحجر؟».

«أبي رجل هرم يحب أشجار الزيتون. ومن غصن شجرة الزيتون تدلى مشنوقاً. أبي أحب أشجار الزيتون».

«طفلي صغير لم يتكلم بعد. كان جميلاً. ولكم كان قبيحاً وبشعاً لحظة رأيته مذبوح العنق!».

«أحرق كتبي، وها أنذا بلا كتب جثة طافية على وجه نهر بطيء الجريان».

ما الذي سيحدث؟ يا إلهي يا إلهي.

خمسة رجال، بتر أحدهم الحبل المشدود حول الرجل الشرير. ما الذي سيحدث؟

وقف الرجل الشرير دون سلاح وسط خمسة رجال، أصابعهم تقبض بعنف على مقابض خناجر طويلة النصل. ارحل يا ضوء القمر. لا نريد أن نبصر. ولكن أعيننا تحملق، وأرجلنا تأبى الهرب. شرير أنت يا قمر شرير.

قال أحد الرجال: «لا تطعنوا قلبه».

وهجمت الخناجر، وطعنت الرجل الشرير في آن واحد، ثم تراجعت تراجعاً خاطفاً منسحبة من اللحم. وتأوه الرجل الشرير متألماً، وتدفق الدم من خمسة ثقوب.

الخناجر تمزق الهواء واللحم. يترنح الرجل الشرير ولا يسقط. اخجلي يا ذئاباً في أعماقنا. لا تعوي فرحة بالدم. سيقبل الموت.

■ ٤ ـ ختام كل الحكايات

مصباح الشارع أصفر، والقمر فوق الشارع، وجسد الشرير ممزق ملقى وحيداً على الاسفلت بعد أن تفرق المتفرجون، ولم يبق أحد. وكانت رندا امرأة شديدة الحنو، أقبلت بلهفة وحزن، وانحنت وألصقت شفتيها بفم الرجل المدمى، ولم يشعر بلظى لحمها، وحاول أن يفتح عينيه غير أن الثلج تساقط فوقه، وسرى الصقيع في أوصاله، واستطاع بصعوبة أن يتأبط ذراع رندا، وانطلقا معاً وتلاشيا في فراغ أبيض صامت. ولم تقرع في تلك اللحظة أيُّ أجراس

حزينة، واضمحل القرصان والمهرج والقاتل، ولم يبق سوى جثة باردة، اقترب منها أحد الكلاب، ودار حولها عدة مرات ثم ابتدأ يلعق الدم الأحمر.


جنكيز خان

عندما ولد جنكيز خان، لم يكن ينتظر رأسه تاج من ذهب، فقد كان والده فقيراً، لا يحترمه أحد. وكانت أمه امرأة كهلة، حزينة العينين، لم تضحك مرة واحدة من القلب.

وقضى جنكيز خان طفولته في الأزقة، يلعب بالطين والحجارة، لكنه عندما أصبح شاباً، توج ملكاً لأن الجوع عذبه طويلاً، ولم يهزم حبه للشعر الشبيه بضحكة طفل. وكان دائم الابتسام على الرغم من أن رغبة في البكاء تدهمه أحياناً دون سبب. ولقد أحب جنكيز خان الصبية الوديعة التي اختيرت لكي تكون أماً لأطفال لم يأتوا بعد. وعندما تلاقى جسداهما لأول مرة في ليلة من الليالي، تشبثت الصبية به، وشدته إليها بضراوة، وأحس جنكيز خان أن جسدها حيوان له آلاف الأفواه والأنياب والمخالب.

وغادر جنكيز خان مخدعه في الصباح، متجهم الوجه بينما الصبية مرتمية على السرير، وقد أغمد في صدرها خنجر ذو نصل طويل.

وظل جنكيز خان صامتاً مكتئباً طوال أيام كثيرة، يتجول في أرجاء قصره كشبح قاتم بلا رأس. وكان وزراؤه وأعوانه يرقبونه بقلق وحيرة، فقد اعتادوا الخضوع لمشيئة من اختاروه حاكماً عليهم.

ووقف جنكيز خان ذات يوم بين وزرائه وأعوانه، وكان كشجرة مقتلعة من ترابها، ومثبتة في الفراغ، وتكلم مصدراً أوامره إلى قواد جيوشه بالمسير والانطلاق عبر العالم وهدم المدائن المنتشرة على وجه الأرض.

وكان ثمة مدينة صغيرة بلا أسوار، أهلها يؤمنون أن الله موجود في كل مكان، ومقتنعون أن الله خلق من الملائكة عدداً لا يحصى، والملائكة من نور، ولهم أجنحة بيض، ولا تراهم عيون البشر. ويخضع كل شخص حي لمراقبة اثنين من الملائكة، يسجلان حسناته ومساوئه. وعندما يموت الشخص، توضع المساوىء والحسنات في كفتي ميزان، والكفة الراجحة تقود الشخص إلى جهنم أو إلى الجنة. وجهنم نار محرقة تعذب دون موت، والجنة مكان جميل مكتظ بالأشجار الخضر والنساء الجميلات وأنهر العسل والخمر واللبن.

وكان أهل المدينة مغرمين بالنراجيل، وتهتز رؤوسهم بنشوة لحظة تضرب يد ما على جلد دربكة.

وكانوا يركبون السيارات لأنهم لم يكتشفوا الخيول بعد، وكانت الخيول لا تزال متوحشة تعدو عبر البراري.

ولم تجد جيوش جنكيز خان صعوبة كبرى في اقتحام

المدينة، وقتلت بضعة آلاف من السكان. وتطلع جنكيز خان بشغف إلى جثث المشنوقين كأنها نجوم متألقة.

وفتشت المنازل، وجُمع الأطفال ثم ذبحوا على ضفة نهر، فقدت مياهه لونها.

ومرت أشهر حافلة بالضجيج والمرح والصراخ، ثم ابتدأ الهدوء يهيمن شيئاً فشيئاً، واستعاد أهل المدينة حبهم للنراجيل والدربكة والحديث عن الفضائح وعن الله الموجود في كل مكان.

وابتدأ الضجر يستولي على جنكيز خان، وتغلغل في لحمه كمرض مخوف وغامض، وقد دفعه ذات يوم إلى أن ينبذ تاجه وملابسه، ويتسلل متنكراً، ويطوف في المدينة كثعبان يفتش عن لحم يصطدم به. وحين أتعبه التجوال دلف إلى داخل مقهى، رواده مزيج من الشبان والفتيان، وطلب فنجان قهوة. وكان ثمة أغنية تصعد من صندوق الموسيقى القابع في ركن من أركان المقهى.

وأخذ جنكيز خان يحتسي القهوة، ويدخن بينما كان المغني رجلاً يعول بصوت خشن جريح:

سأموت إذا تركتني

وطفق جنكيز خان ينفث دخان سيجارته، ويتأمل بفضول فتاة جميلة، قريبة منه. وكانت تهز قدمها بانسجام مع إيقاع الموسيقى الحارة، وكانت يداها مرتميتين على سطح الطاولة الحديدية، وكانتا صغيرتين شديدتي البياض.

وحملق جنكيز خان إلى يديه الكبيرتين الخشنتين،

وانهمر أسى غامض في دمه، واشتد حنينه إلى سماع قصائد ينشدها صوت مبحوح أجش، وأحس أن قلبه عصفور بلا جناحين، يتوق إلى أن يطير راحلاً نحو البيت الذي ولد فيه، وكان بيتاً جدرانه من تراب، وتنتصب شجرة نارنج في باحته. وتنهد جنكيز خان بارتياح، وشعر شيئاً فشيئاً بأن طوفاناً من دماء الأطفال ينأى عنه، وتلاشت جثث المشنوقين من مخيلته.

وغادر المقهى وهو متأكد أن جنكيز خان السفاح مات نهائياً، ودفن في مكان قصي مجهول، وستظل جيوشه تنتظره دون جدوى.

وانتظرت جيوشه، وبحثت عنه غير أنه اختبأ بمهارة، فلم تعثر عليه، واضطرت أخيراً إلى الرحيل. وراقبها جنكيز خان ببهجة بينما كان الغبار يتصاعد خلفها ثم انطلق عبر الشوارع كأنه طفل ولد قبل لحظات، فهو سيكون في الأيام المقبلة رجلاً ما مجهولاً، يحيا في مدينة صغيرة. وسيجد عملاً، وسيقرأ الشعر في الأماسي، وسيحلم، ويحب فتاة كطفلة كبيرة. وستكون محبة للياسمين والصيف، وسيكون جسدها ضحكة عذبة، وسيعيشان معاً، وستنجب أطفالاً، سيحبهم لأنهم أولادها. وسيساوم البائعين بحماسة حين يريد شراء حاجيات البيت.

وكفّ جنكيز خان عن التخيّل إذ استرعى انتباهه حشد من الناس، يتزاحمون حول باب أحد البيوت، فاندس بينهم، فإذا بامرأة تعول وتولول وهي تشير بيدها إلى طفل صغير ملقى على عتبة الباب.

وأمعن جنكيز خان النظر إلى الطفل الميت، فوجد أن وجهه وأطرافه قد قرضتها الجرذان، فتراجع مذعوراً، وأفلت من الزحام وهو يكبت رغبة ضارية في البكاء ممتزجة بغضب جارف أهوج، واندفع خارج المدينة، فقد رجع جنكيز خان إلى الحياة.

وتعالى هتاف الفرح من جنوده حين أبصروه قادماً.

وارتدى جنكيز خان دروعه، ووضع على رأسه خوذة من فولاذ رامقاً بهزء تاجه الذهبي، ولوّح بسيفه آمراً جيوشه بالمسير إلى أمام.

وعندما كان يصغي إلى ضجيج رجاله الشبيه بإعصار غاضب، خيّل إليه أنه يبصر طوفان فولاذ مصهور، يجتاح الأرض كلها، وحينئذٍ ابتسم بتشف.

وكانت الجنة لا تزال مكاناً جميلاً للغاية مكتظاً بالأشجار الخضر والنساء الجميلات وأنهر العسل والخمر واللبن.


العصافير

كان في سالف الزمان طفلة اسمها ندى، وجهها أبيض عذب. وكانت في بعض الأحيان تتخلى عن أساها، وتستسلم لفرح خفي يجعلها تضحك مبتهجة، فتنحدر النجوم من أعلى، وتختبىء في شعرها الأسود المديد.

ولقد قعدت في يوم من الأيام على الأرض، وأسندت ظهرها إلى حائط من الاسمنت بينما كانت قدماها مطروحتين أمامها كجثتين هامدتين، وطفقت تبكي وهي تغطي وجهها براحتيها، فنزل من السماء رجل يرتدي ملابس بيضاً، ووقف قبالتها، ورمقها بحنان، ثم قال لها: «ما بك؟».

فلم تفه ندى بكلمة إنما ازداد بكاؤها، فقال لها الرجل بصوت رقيق: «لماذا تبكين؟».

فكفت ندى عن النحيب، ولكنها ظلت صامتة، فتطلع الرجل إلى ثيابها الرثة ثم قال متسائلاً: «هل تريدين ثياباً جديدة؟».

فأبعدت ندى يديها عن وجهها المبتل بالدموع، وقالت بنزق: «لا أريد ثياباً».

فتأملها الرجل ملياً وقال: «أين أمك؟».

-: «ماتت».

-: «أين هي الآن؟».

-: «في القبر».

-: «وأبوك؟».

-: «سافر ولم يرجع».

-: «أليس لك بيت؟».

فانتحبت ندى من جديد، وسألها الرجل ثانية بحنو: «لماذا تبكين؟».

فأشارت ندى دونما كلمة إلى قدميها المشلولتين، فجلس الرجل ذو الثياب البيض القرفصاء، ولمس بيديه قدميها، فدبت فيهما الحياة في الحال، وخفق الدم في شرايينهما حاراً عنيفاً.

وساعد الرجل ندى على النهوض، وقال لها وهو يربت على شعرها: «هيا امشي».

فأطاعته ندى، وسارت في البداية بحذر وتوجس وارتباك، ثم ما لبثت أن أحست أنها سيدة قدميها. وحين التفتت وهمت بشكر الرجل ذي الثياب البيض فوجئت باختفائه، فوقفت هنيهة حائرة، تغمرها الغبطة الممتزجة

بخوف ضئيل غامض، ثم أخذت تعدو كغزالة سجنت حيناً من الوقت.

وغنت الأرض تحت قدميها، ولم تتوقف ندى عن الركض إلاّ عندما تعبت، فارتمت تحت أغصان إحدى الأشجار، واستلقت على ظهرها فوق التراب والأعشاب الخضر، ولهثت سعيدة.

ووجدت ندى نفسها بعد قليل مجبرة على مراقبة عصافير تطير متنقلة من شجرة إلى أخرى، فقطبت جبينها على حين غرة ثم أجهشت بالبكاء.

ولقد انتحبت ندى طويلاً غير أن الرجل الذي يرتدي ملابس بيضاً لم يحضر، وظلت العصافير ترفرف بأجنحتها عبر السماء الزرقاء.